مجموعة قصصية

الأَبلَّة و أزمنة الصمت

عبد الحسين المطر

مطبعة الغدير

البصرة * ٠٧٨٠١٠٠٦٩٧٠ *

الفهرســـت

ت	اسم القصة	رقم الصفحة
١.	مقدمة لأزمنة الحكاية	٥
٢.	مدينة الصمت	٩
٣.	السور	١٩
٤.	حارس التمثال	٢٥
٥.	ذاكرة الوردة	٣١
٦.	رياح أواخر كانون	٤١
٧.	موت وجه القمر الاخر	٤٧
٨.	ليلة السبت	٥٣
٩.	رُقية بابلية	٦٣
١٠.	العلبة المعدنية	٦٩
١١.	عياناها والسيف	٧٥
١٢.	المُحناة اليدان	٨١
١٣.	باب الهوى	٩١
١٤.	غراب ابيض	١٠٧
١٥.	الرجل الاخير	١١٣

مقدمة لأزمنة الحكاية

أربعة عشر نصّاً تحاول الخلاص من لعنة الصمت ، ومشاعية القواعد الحكائية الموروثة ، لتنفرد بلسانها وعناصرها وزمنها المتحرك بين المكان الدارس والمدينة المأهولة . أربعة عشر نصّاً يحشدها راويها (عبد الحسين المطر) لبيان اختلافه ، وفرادة مروياته عن روايات المدن القديمة ، ومثالها (الأبلّة) البصرية ، ذات الأبواب والأسوار واللعنات .

أربعة عشر نصّاً استجلبها راويها من قبو الحكاية المعتقة إلى مائدة القصة العامرة بأطايب الحبكات ، سردها على وجبات متصلة من سهرة النصّ الأول حتى سهرة النصّ الأخير . أربعة عشر نصّاً استعان (المطر) على إرسال عناصرها الراقدة تحت الأسوار (العشاق ، السلاطين ، المردة ، الوشاة ، المهرجين ، الجواري) بسلطة الماضي على الحاضر ، ووساطة المتن الحكائي على المبنى القصصي . أشفى الراوي الأبلّي بسهراته روحَ الزمن الجريح ، وأحيت طقوسُه الشعائرية خطابَ العشق الموءود في رمال العشيرة .

أربعة عشر نصّاً تنهض وسط عزلة الأبلّيين وتعبر النهر (الذي منح المدينة اسمه) من ضفة العشق المميت إلى ضفة الحب الشافي من أدواء التسلط والقمع والخرس الجماعي . وإذْ تشفي النصوصُ الأبلّية جمهورَها الاحتفالي من طول الأرق والهجس ، تجهّز راويها بأجنحة المرور عبر (الطرق الهوائية) فوق الأسوار واللغات والأجناس والقلاع الأرضية المتناثرة لأساتذة الحكاية .

إن الراوي المعلوم بين مئات الرواة الأبلّيين المجهولين ، يقبض الآن بنصوصه على قواعد الحكاية المستحدَثة ، وهو يخوّلني حقّ التصريح بالقاعدة الأولى : ((احكِ .. احكِ .. هذه هي لعنتك ، وقدرتك أيضاً على طمْر اللعنة القديمة في غبار النصوص المستحدَثة ، فلا تدعها تستيقظ أبداً لتنظر حالَها وتحوّلها ، فتسحبك إلى لعنتها)).

تتناسل النصوص لتلد نصّاً تراكمياً يدور حول نفسه ، ويبحث عن منفذٍ نحو المستقبل . تتّحد إرادة الخطاب برغبة التخطيط والإنشاء ، تفتيتِ التربة السردية الغنية (المعاندة) وتسويتها لبناء مدينة الرؤيا على خطط الموت والقنوط .. وإليك الآن القاعدة الثانية من قواعد الإنشاء الحكائي : ((احكِ .. إنها فرصتك الوحيدة لتَحيى ، وتُحيي الليلَ الأبدي من حولك . هذا هو شعبك القديم ، جمهورك العنيد ، الذي يحبّ السراب ، فولّد السرابَ من سرد السراب ، ولا تجعله يستيقظ من سرابه فيسحبك إلى سرابه)) .

هي ذي إرادة النصّ الحكائي ، أن يقاوم رواتُه السرابَ بالسراب ، والعشقَ بالعشق ، والبناءَ بالهدم وإعادة البناء . ولا أحسب أنّ خطط الحكاية تختلف من حاكٍ إلى آخر بسوى هذا الإصرار على الاختلاف، الذي هو تشابه وتكرار، برغم الاختلاف . فإلى أين يذهب الحاكي ، عدا أن يواصل الحفر في حقل الحكاية ، أملاً في كنز مطمور . إنّ لفظة (كنز) السحرية قابلة لأن تولّد من ذاتها لعنةً تكرارية في غير أرض و لسان . والحال المستديم ، إنّ ظل الأمس الغارب ينسحب على صحراء المستقبل ، وتتراكم ذرّات الهيولى التنبؤية على صروح الحاضر وأبراجه ومجساته الإلكترونية منذ دهور.

وهنا يحين قدوم القاعدة الثالثة بتصريحها : ((ويلك ، بل سعديك ، أيها الحاكي ، ما أقصر عمرك و ما أطول باعك ، ما أفقر أحوالك وما أغزر كنوزك ، احكِ.. احكِ .. فهذا عصرك وتلك فرصتك ، فلا تدعهما تضيعان من عمرك ، ولا تفلتْ معولك الخيالي الضارب في الصخور والمعادن والذرّات)) .

يندسّ الراوي الأبلّي بين الجموع السائرة والراحلة والمقيمة في حزنها وعشقها ويومها الأليف . إنّ نشوته حين يسمع الأصداءَ ويسبر الظلامَ ويقابل الأشباحَ وراء حاجزه المدنيّ الصلب ، وشاشته التلفازية الإخبارية . يغرق في عالمه المادي الكثيف ، في عجينة الحضور الجماهيري المسطحة ، في مجالس العائلة والعشيرة ، في سجلّ أسماء الأحياء والموتى، لكنه سرعان ما تجذبه الانعكاسات العجيبة الصادرة من مشاغل الطين ، كورةِ الفخار ، سهراتِ الأسلاف ، إلى زمنها المتعطل . لن يستطيع مقاومة هذا الوقت المستقطع من

الحياة المدنية الكثيفة بالأحداث والصور ، لـذا يسـقط تحـت سـطوة القاعـدة الرابعـة : ((لا تقاومْ هذا الانعكاس العجيب ، أيها الحاكي ، يسحبك من عادات يومك ، وانشغالات زمنك. دع الحكايةَ تمضي في سبيلها، نفذْ فقرات عقدك الشفاهي، فهو أسمى من أن يُمزَّق أو يُطمَـر . دع العقدَ ينفّذ إرادته . الحكايـات تملـك مصـيرها وحريتهـا في التنافـذ والتـأثير في مسـارات التلقي النظيف من الوصايا والنظريات . الحكاية أغنى من أن تلجأ إلى كنزٍ غير كنزها ، الكنزِ المجرد من الثراء والبريق . إنّ ثراءها من طبيعة علمها بمجهوليتها ، لجوئهـا إلى أقاليمهـا وأراضيها . إنها أبعد من أن تُلتَقط وتُخزَن وتُعرَض وتُمجَّد . مفهومها جزء من فهم انتظارهـا الطويل على حافة الزمان والمكان والمعقولية ، فإذا حانتْ لحظةُ تجسّدها تقـدمتْ بنفسـها إلى مكمن عيشك وإقامتـك . تنتقـل مـن مكمنهـا إلى مكمنـك ، مـن لحظتهـا الأبديـة إلى لحظتـك اللحظوية ، إنها هناك بانتظار الكلمة والمفهوم ، الصورة والتجسد ، التشكل والحضـور . دع الحكاية تنفّذ عقدها ، أيها الحاكي . تظهر بهدوء من مكمن العدم الكتابي ، وتلتقي بكتابـك ومفهومك . ثم ستختفي كما جـاءت ، ومضـةً مـن خيـال جـامح ، ذرةً مـن هبـاء العـدم غـير المكتوب)) .

أربعة عشر نصّاً ، تأتي بلا وصايا ، أو اعتداد ونشوة وافتخار ، بلا تقديم متسـلط . لذا فإني أسوق القاعدة الخامسة إليك ، أنت أيها القـارئ : ((لتقـرأْ قصـصَ هـذه الصـناعة ، أيها القارئ ، بمفهوم النصوص البريئة من الاستئثار والتعالي . دعها تمرّ مـن جانبـك ، ولا تعترض سبيلها بنشوتك وفخارك وغرورك . إنْ لم تكن من الـذين يحبّـون بنـاء القصـور علـى الرمال ، فاهجرْ هذه النصوص ، ودعها تبني قلاعها الهوائية . أنت حرّ ، أيها القارئ ، من لعنة هذه الصناعة . أنت حرّ . عشْ يومك كما تحبّ وتشاء)) .

أربعة عشر نصّاً ، نَفذَتْ من ثغرات الزمان السرديّ ، وأسوار الجغرافيا الخيالية ، تدفع أمامها صانعها الأبلّي كما تدفع أسيراً من أسرى الخـوف والانتظـار. ولا عجـب في هـذا الحال ، فقد جرّبتُ بنفسي مثـل هـذا الشـعورَ مـن الصـمت والانتظـار ، المسـافةَ بـين الـنصّ وظهوره داخل غلاف ، اللذّةَ القصوى من ولادة مطبوع يخرج إلى عالمه الصريح ، صارخاً بوجه

العدم المتوحش الذي يلتهم كل مجهودٍ بكر ، ويسدّ أمامه الآفاق . مرة ثانية تتوجه إليك ، أيها القارئ ، هذه القاعدة ، وهي السادسة في تسلسلها : ((كنْ صريحاً ، أيها القارئ ، واهجرْ هذا الكتاب . وإلاّ كنْ صريحاً واحملْ هذا الكتاب إلى موقعك المجهول ، صنْه من وحشة العدم الكتابي ووحشيته)) .

أربعة عشر نصّاً قصصياً ، تبحث عن قواعد إضافية تفتح لها السبيل ، تفارق موطنَها الأصليّ وتسافر إلى مجهول القراءة والتلقي . الأسوار ، الأنهار ، أحاديث الليل والنهار ، كلها تخرج من (الأبلّة) لترحل بصحبتها في عراء الأزمنة الطباعية ، وفضاء الشبكات الاتصالية ، تتقدم معها إلى عالم مختلف ، تكتسب وإياها فضولَ السؤال والمعرفة ، تختبرً طاقاتها على الظهور جميعا في كتاب .

محمد خضير

البصرة في ٢٠٠٨/٦/٨

مدينة الصمت

بعد أن أنهت جدتنا (أم فطم) رواية آخر حكاياتها صمتت لفترة طويلة،انسلّتْ تحت دثارها الصوفي وأخذت ترتعش. كنا قد اعتدنا ذلك منها ، إذْ أن رواية تلك الحكايات كانت تصيبها بضغوط واضطرابات نفسية حذّرنا منها الطبيب الذي كان يقوم بمعالجتها من ارتفاع ضغط الدم ومرض السكري المزمنين . لم نكن قادرين على منعها من رواية حكاياتها لأنها كانت تنتحب وتقول أنها كل ما تبقى لها في هذه الدنيا بعد أن أفقدها مرض السكري القدرة على البصر. أصبح الخيط الوحيد الذي يربطها بالحياة هو قدرتها على جذب انتباه أحفادها الثلاثة عشر، وجعلهم يزورون غرفتها الصغيرة لسماع تلك القصص الخرافية التي يلتحم فيها البشر مع الجان ، الملائكة والشياطين ، الأشرار والحكماء ، بمعارك وحوارات ترتبط بالحب والكره ، بالفناء والخلود ، بالمسّرات الصغيرة والأحقاد الدفينة التي تتجدد على مرّ العصور . كانت أعمالنا ومشاغلنا اليومية تمنع بعضنا من الحضور لغرفة الحكايات التي تسكنها جدتنا العمياء، واستنشاق تلك الرائحة الخاصة التي هي مزيج من البخور الجاوي و الشاي المعطر بالنعناع والهال، وكان البعض الآخر يتغيب ليوم أو ليلة أو أكثر قليلا معتمداً على حضور الآخرين ، لكن لم يدر ببالنا أنّ جدتنا استمرت تروي وتروي من دون أن يحضر أحدٌ ليستمع الى حكاية جدنا الأول الذي تاه في الربع الخالي باحثا عن ماء الحياة ، والجنّي الذي خرج ليقدم له نبؤات تخص نهاية رحلته، وظهور الجنة المخفية لأحد أحفاده ، أو حكاية جدتنا عندما كانت الحسناء المُلهمة لشعراء العشيرة الذين قطعوا ألسنتهم حين رفضت جدتنا كلماتهم المزيفة !

لم تكتشف أنها كانت تروي لنفسها إلاّ حين احتاجت لقدح شاي جديد فطلبته بإشارة من يدها إذْ أنها كانت تكره أن تقاطع نفسها بطلب شئ معين أو يقاطعها أحدنا بإلقاء السلام في وسط اي حكاية . كانت تقول : لا سلام على الطعام ، وهذه الحكايات هي طعام الروح! استمرت تروي، لم يناولها أحد قدح الشاي ، أعادت الاشارة ولم تتلقف يدها شيئاً . انتهت حكاياتها . قالت: ما بكم لا تردون، هل أُصبتم بالخرس ؟

أدركت أنها كانت تروي دون أن يحضر أحد. صمتت إلى الأبد و أخذ جسمها بالارتجاف، فقد روت لنفسها حكايتها الأخيرة!

قال طبيبها أنها أُصيبت بجلطة دماغية فارقت على أثرها الحياة . بعد دفنها أقمنا مجلس عزاء لثلاثة أيام كما هي العادة. لم يدر بخلدنا أنَّ تلك المرأة الطيبة قد أصابتنا بلعنة شريرة بعد موتها. فقد أصبحنا نلتقي بغرفة الحكايات التي تحولت إلى مكان نجتمع فيه للتكفير عن ذنبنا تجاه جدتنا التي ماتت بسبب عدم مبالاتنا بها. كنا نحاول التحدث عن طيبتها وغرابة وظرافة تصرفاتها، لكن بمرور الأيام بدأنا نفقد الرغبة بالكلام تدريجيا . كنا نستمر صامتين لساعات تطول لتصبح عدة أيام، نتكلم بعدها بصعوبة متلعثمين، حيث كنا نواجه صعوبة في نطق الحروف والكلمات.اعتقدنا في البدء أنها لعنة تخص عائلتنا لكننا اكتشفنا أن الكثير من أقاربنا وأصدقائنا ومعارفنا الذين حضروا مراسيم الدفن أو مجلس عزاء الجدة (أم فطم) قد أصيبوا بداء الصمت أيضا ! ومن ثم قاموا بنشر هذا الوباء بين عائلاتهم و أصدقائهم وهكذا تناسلت هذا الشبكة العقدية بمتوالية هندسية اكتملت باحتواء كل سكان المدينة !

لقد حلَّ الصمت كما يحلُّ الخسوف أو الكسوف كقدر إلهي لا مفرَّ منه. لقد كان قدرنا الذي صنعاه بأيدينا ، وكعادتنا في محاسبة الآخرين فقد تبادلنا الاتهامات التي لم ينج أحدٌ منها ،حتى محافظ المدينة . بل لعله كان أول المتهمين ولذلك قام بتشكيل " حكومة أزمات " للتعامل مع هذا المؤامرة الجديدة التي تهدف إلى الإطاحة بالأمة وتوقف طموحاتها في التقدم والازدهار.لم يكن بإمكان مجلس محافظة المدينة أن يعقد اجتماعا لمناقشة أفضل الحلول وذلك لعدم اكتمال النصاب، فقد كان أغلب الأعضاء خارج البلاد لقضاء إجازتهم السنوية! لكن الأوامر الحكومية صدرت بشكل عاجل بطبع وتوزيع ملصقات تشجع الناس على الكلام من جديد، بعد ان كانت التوجيهات الحازمة تصدرسابقا من قبل أحزاب الحكومة والمعارضة بالتزام الصمت حفاظاً على الوحدة الوطنية!

لم يستطع أيّ من السياسين والمنظرين العقائديين والسفسطائيين ، الذين يكتبون أعمدة ثابتة في كبريات الصحف، أو الذين يظهرون في الفضائيات التلفازية ، من حسم الجدل حول أسباب هذا الداء الذي كمّم أفواه سكان مدينتنا ، فبعضهم اتهم فشل الحكومة في ادارة المشاريع إلاروائية التي ساعدت على تعفن المياه عند السدود المقامة على أنهر مدينة (الأبلّة) حتى اتخمت بالجراثيم المسببة لمختلف الأمراض ،وبعضهم الاخر عزا السبب إلى الغازات السامة التي تم اطلاقها أثناء الحروب السابقة بما احتوت من بكتريا محرمة دولياً تمنع البشر من الكلام ،و آخرون قالوا أنَّ مواد مسرطنة احتوتها أطعمة مستوردة أخذت تتفاعل مع اللعاب لمنع أي صوت بشري، فاقتصرت قدرتنا على اصدار الهمهمات والأصوات المتشنجة . أصبحت الإشارات هي اللغة الأساسية التي انحدرنا إليها، ناكصين في سلّم الارتقاء البشري، الأمر الذي شجّع بعض الشعراء الذين استثمروا لغة العيون فطالبوا بتعميمها واعتبارها لغة رسمية، لكن هذا الاقتراح جوبه بشراسة من قبل جمعية سرية أطلقت على نفسها " جمعية العشاق المحرومين " باعتبار تلك اللغة تخصهم وحدهم منذ أقدم العصور!

كان الناس يعبّرون عن فرحهم بالابتسامات الرقيقة أو الضحك الجنوني الذي يتحول إلى بكاء مُرّ في بعض الاحيان . أما إذا أرادوا التعبير عن حزنهم فإنهم يبكون كالأطفال ، وللتعبير عن الغضب فغالبا ما يبدأ باتساع حدقات العيون والتدافع ومن ثم الاشتباك بالأيدي والأرجل و التراشق بكل ما تطاله اليد من حجارة وسكاكين وبنادق. أصبح التعبير يتمّ بصورة مباشرة وسهلة وواضحة عن كل المشاعر والأفكار . لم تعد الكلمات هي وسيلة نقل الأفكار وما عادَ لسوء الفهم مكان بين سكان المدينة ، أصبحت الحياة أكثر بساطة ووحشية . الأشياء تُفهم بتصنفيها ضمن خانة الخير أو الشر،الأبيض أو الأسود ، لا وجود للتدرجات اللونية المنافقة في العلاقات البشرية!

كنا نخفي سبب هذ الوباء عن الآخرين، محتفظين به مثل سرّ عائلي لا يمكننا البوح به خشية أن تتم محاكمتنا ربما بتهمة الخيانة العظمى أو الصغرى أو ربما بنكران

الجميل للمرحومة جدتنا . كان هذا الاتهام الأخير هو ما أبعد النوم عنا تلك الليلة ، حيث اجتمعنا في غرفة الحكايات كما كتبنا على بابها كمدخل لاعترافٍ أوليّ بتراثنا السريّ.

كان الصمت جاثماً على قلوبنا كما يجثم قطيع غيوم سود فوق قمة جبل أجرد ، شئ هشّ ،لكنه طاغ و وحشي . أردنا أن نمزق قمصاننا مفجرين الهواء الذي في صدورنا مصدرين مئات الكلمات الملعونة و المقدسة معا ، وقفنا في منتصف الغرفة عراة الصدور ، أردنا أن يخرج حرف الباء من طرف شفاهنا أو حرف الهاء من أجوافنا . لم تخرج إلا زفرة حارة ، محرقة تحسسنا ألمها في كل تجاويف الرئتين والبلعوم والحلق . سال لعابنا على صدورنا العارية ، سقطنا على الأرض خجلين من أنفسنا . كنا قد أطفأنا الأنوار ولم يفضح دموعنا الخفية إلا ضوء القمر الذي تسرب من نافذة منسية في أعلى الغرفة ، و نحيب خرج من فم أحدنا كاد ينطق بحروف : أل....آه... لكنه سقط في بركة دموعه وصمت !

أدركنا وقتها إننا لن نخرج من هذه الغرفة إلا بمفارقتنا الحياة لنُقبَر قرب جدتنا،أو نتخلص من هذه اللعنة التي جعلتنا نعوم في تلك المنطقة السّرية الواقعة بين عالمي اليقظة والكوابيس. كانت روح جدتنا تتنقل في أرجاء الغرفة، نشاهدها كظلّ نائم أو متراقص بيننا، كانت هي الوحيدة التي تتكلم، معيدة سرد حكاياتها في مخيلة كل منا على حدة. فالحكاية التي كانت تظهر لأحدنا بصور مبهجة ووجوه تشع بتورد خدود، كانت تتشكل في مخيلة الآخر بظلام دامس ووجوه محترقة، الأحداث هي ذاتها، لكن استجابات البشر مختلفة، النهايات هي ذاتها ، لكن السخط والرضا كان متفاوتا من واحد لأخر. الأماكن هي نفسها ،لكن الأزمنة مختلفة ومتباعدة ،بعضها في وديان الماضي السحيقة والآخر في غموض المستقبل ! لم نعرف ماذا تريد جدتنا أن تخبرنا به، غرقنا أياماً في عزلة عن عالمنا.. تركنا التفكير فيما يجري خلف جدران هذه الغرفة، هل الناس مازالوا صامتين، ام انهم تكلموا أو لعلهم قد انتحروا ليتخلصوا من الفشل والحيرة ؟!

نشر أحدنا مقالة جاء فيها :-((...،لم تكن حياتنا الماضية إلا مجموعة أصوات متشابكة في فوضى ضوضاء صاخبة ، و حين تكف ألسنتنا عن الكلام كانت أصوات أكثر سطوة

تملأ فضاء أنفسنا بضجة أوامرها الحازمة أو بوحها الخفي برغباتها المكبوتة المباحة منها والمحرمة . لم تكن تلك الأصوات تسمح لنا بالحديث أبدا ، كنا نسكت منصتين لها حين نخلو لأنفسنا ،و تتداخل مع ضجة بقية الأصوات حين نكون بين الناس ، و حين نتكلم لم نكن نعرف من كان يتكلم ، نحن أم هي ! لم يحظَ أي منا بفرصة سماع صوته الداخلي. لعل هذا الصمت الذي أذلنا الآن هو المكافئ الموضوعي لصمتنا الحقيقي الذي كان يُرمز له بحضور صوت الأخر. فمتى سنتكلم بصوتنا الحقيقي أيها الناس ؟!)).

تبادلنا قراءة مقالته التي نشرت في صحيفة " صوت الأَبُلَّة " . وحين انتهى آخرنا من قراءتها أعدنا الصحيفة له. كان أكثرنا حزناً، لأنه عرف أن الثرثرة التي اشتهرنا بها ربما تكون إحدى أسباب الكارثة التي حلّت بنا. كان يجلس لساعات طويلة قرب فراشها الفارغ ، فقد كان يعاني كثيرا للتطهر من ذلك المرض البشري المعدي عبر الاستسلام التام لمصل الصمت الذي أهدته الحاجة (أم فطم) لهذه المدينة الغارقة في أنهر و غابات نخيل من الصمت الأبدي، فقد ابتُليتْ بضوضاء الغزاة والفاتحين عبر الأزمنة الطويلة .

((...كان سكان المدينة يتعلمون بسرعة لغات الفاتحين متناسين لغات الغزاة السابقين لهم ، ولقرون طويلة تناوبت الأقوام البربرية على إفساد طفولة لغة الأبلّيين حتى لم يعودوا يذكرون لغتهم الأصلية ،فربما اختاروا الصمت لغة قومية لهم تميزهم عن غيرهم من البرابرة ، ولأنهم أصحاب حضارة أصيلة فلن يكن بمقدورهم الصمت طويلا و سيبقون بانتظار برابرة جدد ليتعلموا لغة جديدة، فهم يعشقون التجدد حتى أنهم أصبحوا لا يعرفون من هم)) .... أراد أستاذ التاريخ أن يكمل محاضرته في مدرج قاعة الفراهيدي التابعة للجامعة ، لكن خبر وفاة جدته وصله عبر رسالة قصيرة رنَّ لها هاتفه النقال مبدداً صمت القاعة التي تعالى فيها ضجيج الطلاب بعد أن تركها مسرعا أستاذهم الذي اختلطت عليه حكايات جدته المشوقة بحقائق التاريخ المبهمة .

لم يؤمن كثيرون منا بجدوى حكايات الجدّة المسنة في حلّ مشاكل المدينة الاجتماعية والاقتصادية المستعصية ، أو حلّ الخلافات الأيدلوجية الظاهرة منها والخفية

بين أحزابنا المتصارعة على السلطة بوسائلها الديمقراطية صباحا والعسكرية ليلاً ، وعراكها الطفولي كصراع ديكةَ في حلبة موت أمام أعين العالم في قنواتنا الأرضية والفضائية التي أوصلت صراخنا لبقية الكواكب فأثارت دموعهم الحزينة مرة و ضحكاتهم الساخرة مرة أخرى و سخطهم على صخبنا الدموي في كل المرات ! ... بعد أن تصافح مع محاوره مقدم البرامج أُطفئت أنوار صالة البث و خرج من مبنى القناة مسرعا لحضور برنامج حواري جماهيري أخر سيتم بثه مباشرة من قناة أخرى ، كان عليه إعادة صياغة أفكاره بمصطلحات (جيو سياسية) تلائم أذهان مواطني مدينته ، بعد أن كانت مصطلحاته تغلب عليها مفاهيم شمولية تلائم عولمة القرية الكونية الكبيرة المسماة الكرة الأرضية . أحس بالرضا ينفخ أوداجه وهو يتنقل بسيارته الفارهة بين مباني بث القنوات ، وحينما كانت الجدّة (أم فطم) تروي حكايتها الأخيرة دون أي مستمعين ، كان هو يتحدث إلى آلاف المشاهدين الذين لم يكونوا ينصتون إلى أطروحات أفكاره المملة بقدر تحرقهم لنيل فرصة الكلام أو التصويت ضد ما يقول . شعر بعضلة قلبه تنقبض بعنف ، وقبل أن يتمكن الآخرون من مهاجمته انسحب من الحلقة الحوارية لحدث عائلي طارئ، كما أعلنت ذلك مقدمة البرنامج بابتسامة عريضة تخفي حرج وحيرة المخرج في كيفية استكمال الحلقة التي فقدت حماسها، في الوقت الذي كانت الجدّة تلفظ أنفاسها الأخيرة بغياب حفيدها الذي كانت تداعبه بلقب الديك المهارش !

كانت أجسادنا محشورة في الرواق الضيق المؤدي لغرفة العناية المركزة، حيث تقضي جدتنا آخر لحظاتها في غيوبة موت دماغها المليء بآلاف الكلمات من حكاياتها الأثيرة. للمرة الأولى منذ سنوات اجتمعنا معا دون تخلّف أيّ منا . بتنا جميعا عند جثمانها متناسين كل مشاغلنا وصراعاتنا ، لم يفترق بعدها شملنا، لأن قدراً غريباً جمعنا بحلول الصمت الذي سرى الينا ثم لجميع سكان مدينتنا. بقينا معا طيلة أيام الأزمة و بعد دخولنا لغرفة الحكايات، حيث قضينا الليالي الماضية مفترشين الأرض، مشكلين نصف حلقة دائرية حول سرير جدتنا الفارغ. بعد أن تطهرنا من كل الضوضاء التي ملأتنا كل السنين الماضية ، أخذت صورة جدتنا تتجسد أمامنا من جديد، بفوطتها السوداء ووجنتيها المرتفعتين ،و وجها

النحيل المنتهي بذقن دقيق ، كانت تضع نظارة سميكة الزجاج حين تقص حكايتها أو حين تقرأ القرآن ، كانت تعجز عن قراءة أي شيئ آخر سوى سور القرآن فكنا نعتقد أنها تحفظه كاملاً ، لكنها كانت تقسم أنها لا تحفظ سوى فاتحة الكتاب وسورة القدر، وكانت تكرر دائماً بأن علينا تذكر أن ليلة القدر خير من ألف شهر ، حيث سيفتح الله أمام أعيننا كنوز رحمته إذا فتحنا أعيننا في الظلمة متخلّين عن تخيّل فكرة أو صورة أو كلمة ! أن يكون خيالنا هكذا عارياً في برية الخلق والوجود أمام الله !

لم نفهم وقتها أياً من كلماتها ، لكننا الآن في محنتنا الصامتة أصبحنا اقرب من أي وقت مضى للفهم ، حيث تخلصت قلوبنا من وهم الفصل الساذج بين الحقيقة والخيال ، بين الحكاية والحياة ،بين الكلام وزيف السكوت !

عرف كل منا أن خلاص مدينتنا أصبح بأيدينا . أشعلنا شمعة يسمح لنا ضوؤها المتراقص أن نرى ما يخطّه القلم . ابتدأ كل منا بكتابة حكاية واحدة من حكايات جدتنا ،و بنهاية كل حكاية سيصل كاتبها إلى خلاصه من لعنة السكوت والوصول إلى تمييز صوته من ضوضاء العالم . لكن مدينتنا لن تنجو إلا بعد اكتمال الكتاب الذي سيحوي كل الحكايات .

لم نعرف بعد ماذا سيكون اسم هذا الكتاب ، وكيف سيقوم بخلاص سكان مدينتنا، وما شعورهم حين يقرؤونه .هل سيعتبرونه خرافات ، أم سيبحثون بين سطوره عن خلاص وأمل ما ! لم نملك أي أجوبة نهائية ، كانت مهمتنا مصيرية و قابلة لكل الاحتمالات . ربما سينسى بعضنا تفاصيل بعض الحكايات فيضيفون أجزاءً من أحلامهم ، ليس المهم النهايات ، وإنما التواصل في إيقاد شمعة الكلام رغم الضوضاء الكونية التي تتداخل مع بعضها و تصل قلوبنا كصوت اصمّ !

طيلة الأيام التي لم نخرج فيها ، كنا مستسلمين لذكرياتنا ولكلمات حكايات جدتنا التي كانت تقودنا بعيدا عما يحصل في شوارع المدينة ، كيف يعيش الناس معاناتهم في التواصل البشري. لم نعلم هل تحولت ألسنتهم إلى أنياب تقوم بالافتراس بدل الكلام ،أم أن قلوبهم التي تضخ الدم معجونا بكلمات المحبة لم تعد سوى عضلات صمّ؟ كنا نسمع طيلة

الليل أصوات نحيبهم المخنوقة كخوار ثيران مطعونة تتجول في الشوارع تتبعها خيوط دمائها الداكنة. ربما عرفوا السر الكامن خلف تفشي دائهم ،وهم يبحثون الآن عنا لينتقموا، لعل التضحية بنا سترفع اللعنة عن المدينة وسكانها المسالمين. كانت أفكارهم عنا كأسطورة ثلاثة عشر شاباً اختفوا في كهف عزلتهم يكتبون ليلاً قصصاً تحكي تواريخ ناس مدينتهم على ضوء شمعة ، و حين يبزغ الفجر تتسامى أجسادهم إلى أرواح لطيفة تنسل من خلال شباك غرفتهم الصغيرة مع نسمات الفجر الرقيقة...كانوا أسطورة نسمع أصواتهم تقرع باب الغرفة طيلة الليل طالبةً الخلاص من عذابهم الصامت ،وعند الفجر يتعبون من الطرق ويبدأون بالانتحاب، مقررين العودة في الليلة التالية، تاركين آثار دموعهم الساخنة ودماء أيديهم المجروحة على الجدار. هكذا تستمر محنتهم دهوراً طويلة.

لم نستطع أن نبعدهم عن تفكيرنا إلا فترات قصيرة ، كان الإبداع يتدفق في تلك الومضات القصيرة لكتابة حقيقة بعيدة عن رغبتهم التي كانت تمارس قمعاً ذاتياً على مخيلتنا . كنا نكتب لهم ،للجموع القابعة خلف جدار الصمت ، نعلم أنهم موجودون هناك ،غير متأكدين من قدرتهم على فهمنا لكنهم يبقون هم المسيطرون ، هم اهدافنا الذين نهرب من رغبتهم في التماثل وتكرار الأفكار والكلمات ، لكي نمنحهم أصواتاً تليق بالبشر ... لكي نمنحهم ... آه .. ما الذي نستطيع أن نمنحهم..؟ لاشيء غير سراب ! نحن الذين يثقلنا إحساس بالذنب ، متفوقين أو مختلفين عنهم، ربما بقدرتنا على رسم حكايات جدتنا بالكلمات التي تحاول أن تقهر أزمنة الصمت... ربما بخلقنا أضاليل جميلة أنكرتها قلوبهم ، وقد تقودنا جميعا لمصير مجهول ،...تبدأ أيديهم بالطرق العنيف على الباب ، على جماجم أفكارنا تطالبنا بسفح حكايات لا تنتهي عن مدينتنا ...

.....

٢٠٠٨-٥-١٠

السُّـــــور

((مدينة تولد من حكاية . . مدينة تلد حكايات . . لكن هذه المدينة حوّلت كل سكانها إلى رواة لحكاياتها التي كتبتها على جريد أرواحهم ، كلماتها امتصت دماءهم ، نمت وكبرت حتى غدت مدينة الأبلة . .مدينة من حكايات . .))

انتظرت هذه الليلة الشتائية المطرة ، الحالكة الظلمة ، لقراءة هذا الكتاب القديم . . همست لنفسي. . إنها ليلتي. . أعددت نفسي لممارسة هذه الطقوس السرية المقدسة ، وابتدأتُ القراءة كميت يقرأ في أول لياليه القبرية قصة حياته للمرة الاولى أو كمحكوم بالإعدام يقرأ وصيته أمام جلاديه . إنها ليلتي. . أشعلت شمعة كبيرة صُنعت على شكل نخلة ، سقطت أول قطرات أعذاقها الشمعية الآن فوق كلمات الصفحة الأولى..... أكملت قراءة كتاب (الأبُلّة)....

((. . . يدور حول المدينة سور مبني من اللبن المجفف ، ويحيط بالسور خندق مائي يسير بمحاذاته ابتداء من نهر الأبلة حتى التقائه بالصحراء. ويبلغ سمك السور من ٢٥-٢٠ قدما ويحتوى على تسعة وتسعين برجا للمراقبة ، وتحت كل برج ، في أسفل السور، مخزن للأسلحة يستخدمه بعض سكان المدينة في أوقات السلم القصيرة لتربية حيواناتهم الداجنة .

وللسور حركتان: حركة أفقية وأخرى عمودية، فإذا ما تحرك حركته الأفقية عابرا إحدى ضواحي المدينة تبدلت أحوال سكانها فتغيرت طبائعهم وعاداتهم وقرضت أرضة الزمن وجوههم وأكلت جرذان الأوبئة محاصيلهم، وربما هاجمهم الجراد الموسمي فسقطت حكومات وانهارت بنايات. وقد يتحرك السور بصورة عمودية حيث يكون عرضة للانطمار برمال الزمن التي تبدأ بالتراكم بعضها فوق البعض الآخر، فيشيخ سكان المدينة مبكرا كلما امتدت ظاهرة التصحر الزمني لأماكن سكنهم وعملهم ، و يدبّ الهرم الى أجسادهم ، وتنبت حكمة الزمن في أوعية طعامهم وشرابهم ! وقد يشترك رجلان من زمنين مختلفين في الجلوس على مائدة طعام واحدة في أحد مطاعم المدينة ،المقابل لمكان السور المتحرك في ذلك اليوم حركة عمودية ، فيتحاور الرجلان برغم اختلاف مفردات حديثهما ، بلغة هي لغة الزمن الأبلّي

العتيد ويفترقان على محبة أو عداء مؤقتين. وقد يلتقيان في زمن أو ربما في نفس المكان ، ليشيدا سوراً جديداً من التواصل أو القطيعة يبنيانه فوق أنقاض السور القديم . . حكايتهما الجديدة تنمو متغذية على رفات الحكاية القديمة ، وهكذا يجدد سكان هذه المدينة مدينتهم ، وتجدد هي تاريخ أعمارهم الهلامية!

كان مؤرخو المدينة يخوضون صراعاً غريباً مع رمال النسيان التي كانت تطمر ما يخطّونه على السور بسكاكينهم أو بأسنانهم من شذرات التاريخ الحكائي اللارسمي ،الذي يختلط فيه الشعر والأكاذيب والأساطير مع تاريخ الناس الذين جففوا أطواق البامياء والثوم وعلّقوها على جدرانهم مع جلود الثعالب والأفاعي. لم يثقوا قط بذلك التاريخ المُحنَّط في متاحف المدينة، فلقد اعتقدوا دوماً – ودونما سبب واضح – أن عيون التماثيل الأثرية تحوي كاميرات مراقبة ، وأن تلك التماثيل المزيفة قد تتحرك في أية لحظة وتنقضّ عليهم لتفترسهم في صمت قاعات المتحف الباردة معاقبة إياهم على عدم تصديقهم تاريخ فاتحي المدينة المنتصرين الذين هدموها وأحرقوها على مر العصور. كما غمرتها الطوفانات أكثر من مرة ليبدأ سكانها ببنائها من أماكن مختلفة فلم يُعرف لها مكان محدد ، إذ أنها شُيدت كل مرة بطين الحكايات المفخور بنار الرواة .فأراد سكانها أن يسكنوها.. فسكنتهم .. أرادوا أن يحرثوا أرضها فحرثت خواصرهم، وشقت وجناتهم أنهارا ترويها..ملأتهم وملأوها.. فملّتهم وملّوها.. أرادوا أن يهجروها فهجرتهم أسماؤهم وذكرياتهم .. ابتعدوا عنها.. لكنها استوطنتهم كما استوطنت مآسيها أرض قلوبهم المتشققة أنهارا من الدماء والملح ، كغبرة سمائها الصيفية الملتصقة بقاماتهم الهزيلة ! (الأبُلّة)هي كل رجل فيها،فحيثما يرحل أحد رجالها فإنها ترحل خلفه ،وإذ يهجرها الرجل الأخير فإنها تهجر مكانها وتنسى اسمها !

للأبلة أربعة أبواب ، أولها(باب الهوى)، مدخل أهل السواد الذين ينحدرون بسفنهم النهرية الصغيرة المحملة بالمحاصيل الزراعية والبضائع التجارية التي إما أن تباع في أسواق الأبُلّة أو تنقل عبر البحر إلى البلاد الأخرى. وقد يأتون عبر الصحراء المتاخمة لشمال الأبلة حيث لا يوجد خندق مائي يفصل الصحراء عن السور فتسهل حركة قوافل الإبل

المحملة ببضائع الشام وجواريه الفاتنات . وبمرور الزمن أنشئت (سوق المربد) التي تباع فيها الجواري والعطور والمحاصيل الزراعية والأحجار الكريمة ، ويندر أن يدخل شخص من هذا الباب دون أن تلفحه رياح الهوى الشمالية.

وثاني الأبواب هو(باب الفتنة) الذي يفصله عن أرض خراسان نهر الأبُلّة الكبير الذي يستمر بالانحدار جنوبا حتى يصب في البحر. ومن خلاله دخلت الفتن الكبرى إلى الأبلة . تعرّض الباب لطعنات رماح التتار وقذائف مدافع سلاطين بلاد فارس المغامرين . خُربت قلاعه وأُحرقت مراراً لكنه ظل عصياً على السقوط أو الفناء،وفي بقائه حتى اليوم يكمن سر صمود سكان الأبلة المسالمين ....

ثالث أبواب الأبلة هو (باب الذكرى)، و هو باب ظاهره الذكرى وباطنه النسيان ، فمن يدخل هذه المدينة ينسى ما سواها ومن يرحل عنها تسكنه حكاياتها. يؤدي هذا الباب إلى صحراء نجد، ومنه تنطلق قوافل الحجاج إلى الديار المقدسة ، مودعة مزارات وقبور الأجداد المنتشرة على جانبي الطريق المؤدية إليها . وقد ادّعى كثير من مؤرخي المدينة أن مركز المدينة القديم كان يقع في (كوت الزين) وهو اليوم مجموعة بيوت طينية وبساتين وكثبان رملية تقع في الطريق المؤدية لباب الذكرى. تهب الرياح الشرقية الرطبة من جهة هذا الباب فتغرق سكان المدينة في بحر العرق البشري الخانق فينزفون ذكرياتهم ..

أما الجهة الرابعة لهذه المدينة فتطل على البحر، ولا يمنع البحر عن لقائها أي سور ، فساحلها بوابة لاستقبال السفن المتعبة . وفي الناحية الشمالية من الساحل توجد مقبرة للسفن حيث ترقد فيها السفن التي هجرها أصحابها أو التي هجرت أصحابها بعد أن نزلوا إلى أعماق البحر بحثاً عن اللؤلؤ والأحجار الكريمة ولم يعودوا حتى اليوم . سكان الأبلة يسمون الساحل (باب الصمت) لأنهم يجلسون عنده محدقين في البحر ساعات طويلة مستسلمين الى سحره الذي ينسيهم الكلام . لكن البحارة الذين ُأدمنوا البحر يسمونه (باب الهمس) فهم يسمعون أصواتاً غريبة، يدعي بعضهم أنها أصوات الجن ويقسم آخرون أنها أصوات حوريات البحر العوانس ،غير أن المسنين منهم يقولون أنها شكوى سفن بعيدة هدها

الشوق للأبلة . الرواة لم يستطيعوا أن ينتزعوا من البحر أياً من حكاياته فهي تبدأ في أعماقه .. تفور مع تياراته .. تلقيها الأمواج على الساحل ثم ما تلبث أن تسحبها تاركة خطوطاً غامضة على رمال الساحل لا يفهم منها الرواة شيئاً سوى أن البحر الماكر لن يسمح لأحد يوماً بمعرفة أسراره.

يفتح كل من أبواب الأبلة الأربعة مغاليق حكايات لا تنتهي،فكل من يقرأ كتاب حكايات الأبلة يجد حكاية حياته وقد رُويت كاملة أو مختصرة بجملة أو بكلمة واحدة ، وفي كل الأحوال ، فإن هذه الحكايات ستبقى تعيش في داخله . . تعذبه،طالبة منه أن يكتب خاتمة حكايته قبل أن ....)) . . . . . .

الباب يُطرق بشدة . . أيد كثيرة تطرق . . أصواتهم تهدد بكسر الباب إن لم . . . ... ضوء الشمعة يبدأ بالخفوت والتمايل .. لن أفتح لهم . . فهذه ليلتي. . . أقلب الورقة . . أتسلق سور الحكايات ، اهبط من أعلى السور . . وأستمر بالقراءة . . . . . .

.....

حارس التمثال

اوقفوني لحراسته ، وقالوا انه سيحميني وقت الخطر كما سيحمي كل ساكني مدينة الابلة ، حذروني من الخيانة او التقاعس او النوم أثناء الواجب فهو يرقبني ويستطيع إدراك كل ما أفكر به لو أراد ذلك. قاعدته التي ارتفعت ثلاثة أمتار لم تحمل أية لوحة تعريف للجسم الإسمنتي الضخم المطلّي بالأسود فالكلّ يعرفه منذ الصغر، إنه " تمثاله" الشامخ في أحد أركان الساحة العامة التي تستقبل الوافدين الى الأبلّة من أبوابها الأربعة كما ينطلق الخارجون منها أيضا.

لم أعرف لماذا تم اختياري أنا بالذات لهذه المهمة الخطيرة والجسيمة ، رغم أني لم أكن في يوم من الأيام شخصية مهمة في الدولة ، بل كنت مواطناً عادياً انتقل من الوظائف المدنية الدنيا الى العسكرية برتبة عريف او رئيس عرفاء في أحسن الأحوال ،او ربما استقر بي الحال في هذه الوظيفة التي لا يُعرف إنْ كانت عسكرية ام مدينة، إذ لم يشكل لي ذلك أي فرق ،فقد كانت الأجورالتي اتقاضاها متدنية في كل الاحوال، دون ادنى أمل بحصول زيادة أو ترقية . كل ما كنت أنتظره هي المكافأة السنوية التي كنت أتسلمها بمناسبة يوم مولده ،هو، صاحب التمثال الأكبر في هذه المدينة التي تزخر بتماثيل علماء وشعراء وشهداء توزعت في انحاء الأبلة ،

لا يحرسها أحد ، لا لأنها غير مهمة بل لأن أياً من أصحابها لم يكن على قيد الحياة، ولا أحد يخشى الأموات! كانت كأنها تماثيل قد فرّت من متاحفها بعد أن أعياها طول الانتظار للزائرين ،إلا هو فقد كان حياً يرزق يحكم البلاد طولا وعرضا ، رغم أني لم أشاهده يوماً إلا في الصور التي كانت تبدو مختلفة عن وجه التمثال وتكوينه البدني ، فلم يكن للتمثال الذي أحرسه مثيل في كل انحاء البلاد !

لم أعرف ما يميز هذا التمثال عن غيره إلا بعد انقضاء عدة أسابيع من بداية تكليفي بحراسته ،فلم يكن أياَ من العابرين يجرؤ على أن ينظر اليه مباشرة إذ كانوا يمرون مطأطئي الرؤوس ،إلا الأطفال فقد كانوا يحاولون أن يلوحوا بأيديهم ليلفتوا أنظار ذويهم مندهشين من كبر حجمه وطوله ، لكن أيديهم الفتية كانت تُضم بقوة الى أجسادهم متلقين تعنيفاً خفياً

بضرورة الاسراع في المشي . السيارات المارة كانت أيضا تسرع ، حيث لم يكن أصحابها يلتفتون لجهة التمثال معرضين حياة العابرين من جهة التمثال الى الجهة الاخرى للدهس ، و بقيتُ دوما مرتاباً باحتمال كون تلك السيارات مفخخة أو تحمل أشخاصاً انتحاريين يرومون تخطي الحواجز الاسمنتية الموضوعة أمام التمثال وتفجيره ، لكن أيا من تلك الأشياء لم تحدث طيلة السنوات الخمس والثلاثين الماضية ، فقد كانت للتمثال قوى خفية تحميه من كل المتآمرين!

طيلة الخمس والثلاثين سنة التي قضيتها في حراسة التمثال لم يجرؤ اي شخص على إجراء حوار معي ، لا قرب التمثال ولا في بيتي ؛ حيث كنت أقضي ساعات الراحة القليلة خلال استلام بديلي لواجب الحراسة . كنت قد اعتدت الصمت ونظرات الارتياب بمن حولي ، صدرت لي أوامر مشددة بعدم الاختلاط بأي من طبقات الشعب خوف التعرض للرشوة او التهديد ، و مُنحتُ صلاحية سحب الأوراق الثبوتية من أي مواطن مهما كان موقعه الوظيفي او رتبته العسكرية . كنت أشعر بزهو خفي لهذه السلطة رغم أني لم أستمتع بأي من مظاهر الرفاهية ، بل أن حياتي تحجرت وأصبحتُ أجد صعوبة في التواصل مع الناس . لم أعد أتذكر أياً من أصحاب طفولتي ، وحتى الكلمات والقصائد الجميلة صعبَ عليَّ تذكرها وترديدها لقتل الملل في نوبات الحراسة الطويلة. أصبحتْ كلماتي أكثر ضجراً منّي وتحجرت معانيها فلم أعد أستخدم إلا كلمات صاحب التمثال التي يرددها في خطبه الحماسية التي كانت تُبث كلما اجتمعت جموع الطلاب والموظفين ومسوؤلي الامن في المدينة عند تعرض سيادته لمحاولة اغتيال . وكان حماس الجماهير يلتهب كلما توعد منفذي الاغتيال الفاشل ومن يقف خلفه من قوى الظلام بالمشانق و الخزي الذي سيسجله التاريخ لهم . وفي أحيان أخرى تحتشد الجماهير لترديد الهتافات والأهازيج والأغاني الحماسية فرحاً بتحقيق انتصارات يتفرد التمثال بالتخطيط والتنفيذ الجريء لها . وفي كل تلك الاوقات كنت انا من بين الجموع الأشد اضطراباً خوفاً من أن يستغل المتآمرون إحدى هذه المسيرات الحاشدة ويقوموا بالاعتداء على التمثال الحامي للوطن ولجماهيره المحبة !

في الفترات التي لا تُنظم فيها المسيرات قرب التمثال كان الملل يفتك بي .فكرت بالزاوج يوما لقتل الملل،لكن الصعوبات المادية واجهتني رغم أني امتلك بيتاً صغيراً أعيش فيه وحيداً مع أمي المسنة . العقبة الحقيقية كانت في استصدار موافقة الزواج من الدولة حيث كانت طلباتي تؤجل كوني انتمي لجهة أمنية عليا ! بمرور الوقت لم تعد فكرة الزواج تلح علي وخاصة أن وجود امرأة غريبة بقربي قد يهدد الوضع الأمني لسرية المعلومات الخاصة بالتمثال!

حين وقفت في تلك الليلة وحيداً في الساحة قرب التمثال ، كان رأسي خالياً إلا من ضجيج المسيرات الحاشدة التي نُظمت طيلة الاسابيع التي سبقت الحرب. أما في هذه الليلة فقد خلت فيها الشوارع إلا من حركة الدروع العسكرية التي كانت تردّ على القذائف التي تنطلق من حدود المدينة الجنوبية . كان صدى الانفجارات يتردد في رأسي الذي كنت أتحسسه كما لو كان بالوناً منفوخاً بهواء ساخن او صخرة مجوفة موضوعة على جسدي . كنت أتطلع الى رأس التمثال ، متاكداً من أنه لن يسمح لأحد بالاقتراب منه ... كنت الوحيد الذي رأى .... انطلاق أشعة الليزر الحمراء من عيني التمثال .. تحطمت كل قوات العدو ودروعه الحربية ....لم أعد أخشى أحداً رغم أني لم أر بعد ذلك أياً من قواتنا الأمنية او العسكرية ، فقد كنت الرجل الاخير في هذه المدينة الذي بقي مستظلاً بالتمثال .. كنت الوحيد ..!

ولما اشرقت شمس اليوم التالي ، كانت قاعدة التمثال فارغة من جسمه الضخم ،عيناي لم تصدقا ما حصل ، كانتا على وشك البكاء الذي غالبته وأنا اصعد فوق القاعدة الاسمنية واقفا محل التمثال المختفي ..وقفت محله..صرت هو..ولم اتحرك أبدا !

وانتم الآن يا من تكتبون قصة اعترافي في محضر استجوابكم الرسمي أو في تقاريركم الصحفية أو نشراتكم الاخبارية التي تُبث عبر الأقمار الصناعية، قد تحسبوني مجنوناً أو عسكرياً مهزوماً من بقايا النظام الدكتاتوري البائد، يحق لكم ان تشنقوني او تعدموني بالرصاص ، لكنكم لن تقتلوا روح هذا الشعب الذي بقى وفياً لتماثيله ، يحرسها منذ الاف

السنين ، ويشحذ مخيلته كل فترة من الزمن ليجددها . لن تمنعوه من ذلك مهما فعلتم، وأكبر دليل على ذلك أن قاعدة التمثال بقيت حتى بعد أن ذهب صاحبها الذي شغلها هذا الزمان ، وسأظلّ واقفاً عليها حتى أسلمها لتمثال آخر في زمن آخر . قد تختلف الصور لكن ...،.. وكالعادة لم أستطع أن أكمل أي من خطبي..، أقصد الخطب التي كنت ألقيها باسمه فقد أخذ الأطفال يرشقونني بقشور البطيخ وبما تبقى من أحذية الجنود المنهزمين البالية ، لكني لم أتحرك من مكاني فوق القاعدة الإسمنية قيد أنملة وبقيت رافعاً جبهتي نحو الشمس ويدي تلوّح للجماهير المحتدشة ...كانت الشمس تُرسل أشعتها الحارقة فوق خوذتي كعادتي وكعادتها منذ الآف السنين.. وحين ابتدأت خطابي الابدي للجماهير: ..يا جماهير الأمة ..يا..، قاطعوني كعادتهم بالتصفيق والشعارات الحماسية التي ظل صداها يتردد في تجويف رأسي الصخري الصلب ، و بمرور الوقت أخذت أشعر بخدر في كل أطراف جسدي الذي لم أعد اشعر به إلا حين ترفع الريح بقايا الأسمال المهترئة التي كانت يوما الزيّ الرسمي لحارس التمثال الأبدي!

.....

ايلول/٢٠٠٦

ذاكرة الوردة

لم تصدقّ عيناها أنه يقف أمامها مرةً ثانية بعد كل تلك السنين الطويلة، إنه هو بلحمه وشحمه ورائحته التي تميزه دون غيره من الرجال، رائحة رجل مسكون بالغربة والحزن من رأسه إلى أخمص قدميه . لم يكن من النوع الذي يمكن أن يأتلف معه المرء منذ اللقاء الأول ،لكنه بمرور كل تلك السنين ، أصبح شخصاً لا يمكن أن تفقد الذاكرة اسمه أو لون عينيه أو رائحة البارود التي تنبعث من ثيابه الداكنة. ربما كان توهُّم تلك الرائحة مبعثه تلك الأيام العصيبة التي شهدت تعرفها به، حيث كان الرجال يذهبون إلى جبهات الحروب وهم يحلمون بالعودة أحياء من معارك محسومة مسبقا. لم تكن مفردات الهزيمة أو النصر هي التي يتداولونها، بل الموت أو البقاء والعودة إلى الأهل والأحباء. لم تعد تعرف ما الذي دفعها لاعتقاد أنه يختلف عن غيره من الرجال الذين كبروا من الفتوة إلى الرجولة بسرعة. لم تترك الحرب أحدا لينتبه عليها أو ليبحث لها عن سبب، فالجو المغلف بالبارود ودخان القذائف لم يكن يسمح بأي نظرة متفحصة لما يحدث أو لوجوه الأشخاص .

هاهو ذا الآن أمامها، لم تعد تتذكر أياً من الكلمات التي حاورت بها طيفه طيلة الليالي الشتائية الطويلة ،أو الهمسات والحشرجات التي كانت تختنق في بلعومها حين تزيح قطرات العرق المتصبب من جبينها حينما تنقطع الكهرباء في أيام الصيف اللاهبة ،حينما تفقد أعصابها من طول الوقت الذي يمضي دون هدف يلوح سوى أمل باهت ولعله زائف بعودته من أتون تلك الحروب البائسة التي كانت تبتلع الناس والذكريات وسنوات الشباب المسرعة منذ لقائها الأول به قبل عشرين سنة. وها هي ذي امرأة نحيفة على أعتاب الأربعين تنتظر أن يأتي ويطرق الباب الذي ظل موصداً بوجه كل من خطبها أو طلب ودها بكلمات الغزل أو البسمات ، أو بنظرات عينين متلهفتين أو حتى عابثتين ، وما أكثرها في تلك السنين التي كان الكل يركض فيها لكن دون احراز إنجاز سوى البقاء حياً بروح كسيرة وجسد متعب أو مشوّه ..... ربما ذاك ما منعه من العودة كل تلك السنين التي تلت انتهاء الحرب أو ما يسمى بفترة السلام بين الحربين، ربما هو الآن يعاني عوقا بأحد رجليه ...لا يهم، سوف تدفع كرسيه المتحرك كل يوم إلى الباحة الخلفية من الدار وقت العصر، حيث

كان يحب الجلوس متأملاً شجرة الياسمين المحاطة بطوق من أزهار النرجس البنفسجية، وكوب الشاي لا يفارق أصابع يده النحيلة ... أو ربما انه وقع أسيراً وفضل البقاء خارج الوطن والزواج من إحدى النساء هناك .

انتبهت من أحلام اليقظة التي كانت تنتابها عشرات المرات في اليوم ، لتعود الهواجس وتتبعها في أحلام المنام ككوابيس مزعجة ، أو أحلام وردية غامضة النهايات ، يظهر فيها وجهه متغير الملامح والهيئة، فمرة يظهر بوجه شاب رسام يتسكع قرب النهر معتاشاً على رسم وجوه الأطفال الذين تحملهم أمهات جميلات لهن نفس ابتسامتها و نفس لمعان الضوء في عينيها السوداوين، وحين تأتي الظهيرة وتختفي النساء من لوحاته ، ظهر بدلهن وجوه شيوخ يقضون أوقاتهم باصطياد الأسماك بالصنارة ،أو يتحول هو نفسه إلى شيخ بدويّ يتجول في البادية فيتعرف على بنت شيخ العشيرة المريضة ويشفيها بعد أن شارفت على الموت بتحضيره لدواء عجيب يعطيه لأبيها مهراً لها .. ،..

لم تعد تفرق بين أحلام اليقظة وأحلام المنام.. أصابها صداع مزمن كان يتجدد كلما دوّت أصوات المدافع لتعلن بداية جولة من قصف المدن العشوائي الذي كان يتجدد كلما مل المتحاربون من شن الهجومات والهجومات المعاكسة على الجبهات ، أو أرادوا الانتقام من بعضهم البعض بقتل عوائل الجنود و حبيباتهم اللواتي تسكن صورهن في جيب داخلي من معاطفهم الحربية، كما هي صورتها التي لم تغادر جيبه يوماً إلا بعد أن عثرت عليها أمه بعد انتهائها من غسل معطفه بالماء الساخن ، فأخرجتها وقد تكرمشت و بدت حوافها متآكلة بفعل الزمن من أثر كفه الخشنة وهي تخرج الصورة في ليالي الشتاء الطويلة ليناجيها برقة وعذوبة ويعتصرها بشوق ولهفة حتى أصبحت في يديه كأنها وردة جورية ذابلة الأوراق ..كانت كلمة "وردة " تتدفق في مخيلتها كلما أرادت أن تغفو أو أوشكت على الصحو من المنام ..لعله أطلق تلك الكلمة السحرية في اللقاء الأول والوحيد بينهما ..وصفها بالوردة الجورية ، لعله ذكر أنها حمراء ..لا ربما قال بيضاء بلون حمامة السلام أو بلون فستان العرس الأبيض..ذكرها مراراً أمامها ..آه ما أجمل جرس حروفها يتردد صدى أنغامه في

أذنها حتى اليوم سابحاً في بحر المخيلة، متلوناً بألوان الطيف السبعة ،ممتزجاً مع أوهام وأمراض الذاكرة المثقوبة..ما أشد قسوة الزمن الذي لم يحتفظ لوجهه بملامح محددة في ذاكرتها! لم تعد تعرف أي شخص هو بالضبط..حين تسير في الشارع تراه في كل وجوه الرجال الوسيمين والمتعبين ولاتراه في واحد !، لكنها الرائحة هي ما تقودها إليه وحده ..هي ما لم تنسه الذاكرة أبدا، ..لكن وجهه لم تعد تذكره.. أخذت تبكي ..تبكي..آه ،وجه مستدير من دون ملامح ..آه ..آه... آه...

استيقظت من جلسة العلاج النفسي على صوت المروحة التي تصدر صوتها الرتيب المزعج ..تك ..تك ..تك .. ثلاثة أذرع يطارد بعضها بعضاً منذ الأزل لكن دون أن يصل ذراع إلى الأخر..ثلاثة أحبة متباعدون حكم عليهم قدرهم بهذا العذاب الأبدي ..هو و هي والشخص الأخر..، الاخر ذلك المتخفي خلف الستارة يظهر ليفصل بينها وبين حبيبها " حسان الكامل " ، حيث يتخذ أشكالاً مختلفة حسبما كانت مروحة الزمن تختاره لهم ، فمرة تعود بهم الى العصر الأشوري أو العثماني او المماليك ، ومرة تقذف بهم الى أتون نار المستقبل الغامضة، الى ما لا يعرف من أزمان غريبة قادمة يدوس فيه الإنسان على أخيه الانسان ويسحق كل الورود ، الوردة .. آه الوردة ... تتبعهم في كل الأزمنة ..رغم أن أذرع مروحة الزمن ما تفتأ تفرم الوردة الشفافة بوحشية وقسوة كصوتها الهمجي ..تك ..تك ..تك .. ربما ترحل بهم مروحة الزمن إلى الطفولة حيث كانوا يلعبون : شرطي ..حرامي .. راعي البيت .. كان الحرامي دائما يفصل بين خوف الشرطي على راعي البيت ، هو ذا الأخر اللعين الذي يفصل بينهما دائما بستارته الغامضة .. التي تخفي ملامح وجه حبيبها الخائف عليها دائما ، محاولة أن تقذفه في خضم المشاكل والآلام و الحروب ... تقذف به في أتون هوة ملتهبة سحيقة ، صرخت بصوتها المبحوح من أعماق قلبها ليلحق به في ظلمة الهوة

– حســـــــــــــانـــــــــــــــــــــ....

استيقظت مرة اخرى على صوته..فتحت عينيها نظرت في عينيه ..ابتسمت عيناه العسليتان ، قال لها :

– بماذا كنتِ تحلمين؟ ماذا رأيتِ ؟ في أي زمن كنتِ ؟

احست بالصداع يعاودها ، تموجت الصورة، ظهرت ثقوب سودٌ فيها..اتسعت الثقوب .. تمزقت الصورة من وسطها ومن أطرافها أيضا ..أخذ الأخر يظهر ، يحل محل حبيبها كما لو كان يقرضه كدودة نهمة او كسرطان خبيث يمتد من أطراف قدميه حتى وجهه ..عينيه.. قمة رأسه..حلّ الظلام وساد الآخر ..تك ..تك ..تك..

–أنتِ في زمن الشيخوخة الآن .

صرخت :

– لا ،

– واجهي مصيركِ

– لا ..لا ..

– واجهي مخاوفكِ ، المواجهة هي سبيلكِ الوحيد للشفاء،

– لستُ مريضة.

– انتِ مصابة بفقدان الذاكرة ، الأوهام سيطرت عليكِ

– لستُ مريضة ، أنا عاشقة ،...أنا كوردة جورية ..هو قال لي ذلك.

– لا وجود له إلا في أوهامكِ.

– لقد رحل لفترة من الزمن لكنه سيعود.

– زمنه مضى..

– المروحة هي السبب ، لقد فصلتنا عن بعض .. هو يعرف ذلك لكنه سيعود.

– لقد ذهب للحرب ولن يعود ..

– سيعود.. قلت لك سيعود... كفى! أعرف انك تكرهه

– وأنتِ أيضا تكرهينه ..لأنه ترككِ.

– أنا أحبه قلتها لك مرارا.. أحبه ! ، ..لقد وعدني أن يعود وسيعود ..زوجي الحبيب،حسان

– متى رأيتيه اخر مرة ؟

– بالأمس رأيته كان يرتدي ثيابه الخاكية ..لا .. لا ، كان يرتدي قميصاً أصفر ويمسك بوردة .. وردة صفراء وكان .. يود أن يخبرني عن سفرته الأخيرة..كانت رائحة قوية تنبعث في الجو ..

– أ هي رائحة الوردة ؟

–ليست رائحة الوردة بل رائحة غريبة ..خانقة نوعا ما ..

–رائحة بارود؟

–..... ،.....

هل سقطت القذيفة بقربكِ ؟ هل خفتِ كثيرا من الصوت ؟

لا .. ليس الصوت ما أخافني لكنها الرائحة ؟ ربما رائحة بارود أو رائحة شياط كان شئ يتفحم بقربي ..

ما هو ؟

لا أتذكر شيئاً.. لا أتذكر..كل ما أتذكره أني بقيت طيلة الليل أتوسل اليه أن ينقذني وابكي بحرقة اجفان محترقة وجسم ملتهب بفقاعات الحروق . لكنه لم يجبني ، وقبل الفجر التفت إلي، كان وجهه بلا ملامح .. آه..آه .. وقتها فقط شعرت بخذلان مدمر لكني لم أستطع الكلام .. آه ..آه

هل تستطيعين النظر في المرآة ؟

–.....،.....

نظرت في المرآة ، كانت أثار حروق واضحة على خدها الأيسر وأسفل ذقنها ،وأذنها اليسرى متجعدة . نظرت بذهول ، ولم ترفع نظرتها الواجمة من المرآة ، صمتت..

–هل تستطيعين النهوض سيدتي ؟ إنكِ تتحسنين بشكل ملحوظ ، سوف تتعافين من الأوهام ويزول عن وجهكِ الذبول، أنتِ كوردة جورية.

يعيدها على مسامعها في لقائه الثاني بها ..أنتِ وردة.. أرادت أن تقول له :شكرا، لكنها استعدت لكلمة " ذابلة " تتبع كلمة " وردة " لعل هذا الآخر المشوه الساكن خلف وجهها ينطقها، لتبدأ من جديد بالصراخ ومحاولة إسكاته بجرحه بسكين حادة أو بالإمساك بالكهرباء!

لكن الطبيب أمسكها برفق من مرفقها وكعاشق يرافق حبيبته إلى باب غرفة زفافهما ، أوصلها للباب ،نظرتْ إلى وجهه.. نفس العيون العسلية منذ سنين طويلة لم تتغير..

على الباب قرأتْ لوحة معدنية كتب عليها :" د. حسان الكامل / أخصائي الجملة العصبية والأمراض النفسية" .

لقد أحست وقتها أن أزمنة طويلة قد مرت عليهما وهما يقفان وجهاً لوجه، و أن هذا الآخر الساكن فيهما ، الذي عذبهما بضحكته المتهكمة الصفراء طيلة سنوات الفراق ، بدأ يضمحل ويتلاشى وتخلو الذاكرة منه ، فالماضي والحاضر يندمجان في لحظة من الزمن. ساعتها اغرورقت عيناها بدمعة كتمتها طيلة سنين طويلة قضتها بحسرة وندم، حيث لم تكن تعرف ماذا تقول أو كيف تتصرف ، بل اكتفت بالتحديق بالعينين العسليتين لذلك الشاب الذي جاء للسؤال عن أخيها الذي و كان قد غادر البيت إلى جبهة القتال قبل خمس دقائق ...

– لقد خرج تستطيع اللحاق به في محطة القطار إذا أسرعت قليلا.

شكراً لكِ يا وردة !

اسمع، ما اسمك؟ لكي أخبره حين يرجع..

لكنه رحل مسرعاً ولم يجبها عن اسمه. كانت تنتظره كل يوم لعله يعود للسؤال عن أخيها.

لم يعد أخوها حتى اليوم.لم يعد صديقه للسؤال عنه منذ أن جاء في تلك الظهيرة مخلفا رائحته تعبق في ظل ذاكرتها المعتم، حيث توقفت مروحة الزمن عن دورانها . لم تعد

تسمع صوت المروحة الرتيب ، فقد اكتشفت في تلك اللحظة أنّ مرضها وهب له اكثر من اسم وجعل روحه تحل في اكثر من جسد ،و آخرها اسم وجسد طبيبها المعالج. طأطأت رأسها بخجل ، لم تعد عيناها تصدق انه يقف أمامها مرة ثانية بعد كل سنوات !

.....

٢٩ / آب/٢٠٠٦

رياح أواخر كانون

خرجتُ من المقهى تصفع وجهي رياح أواخر كانون، كانت الشوارع خالية من الناس، أضواء المصابيح الجاحظة العيون تحيط بها هالات مزرقة من الهم المبثوث من السماوات إلى الأرض. كان قلبي متفهما لهذا الغرور المهدور الكرامة الذي كان يتملكني ،أنا الأديب المجهول، حيث كانت فكرة برزخية تُسقم القلب أسمعها في الليل نائحة مع صوت الريح، بصوت نُبوئي تصرخ: "إذا لم تكن الأرواح مطلعة من برزخها على هذه الحياة، فقد خاب فأل الأدباء الذين ماتوا مجهولين!" لكن بشارة العزاء بَعثها إليَّ الأجداد حالما مررتُ أمام مركز الشرطة القديم. نظرتُ إلى الجدار المقابل فرأيتُ الغائب مصلوبا" و قد تدلى شبح جسده من أعلى الجدار ، كان رأسه منكسا" فلم يرفع عينيه عن الارض. كان يتأمل الخطى التي داست طول النهار على دمه المسفوح. مررتُ أمامه ككلب سائبُ لم يميزني من سواي من الكلاب التي تهيم في الليل باحثة عن مأوى بدلا" من البيت و العائلة التي فرقت شملها الحرب.

هدني المسير فجلستُ اخيرا" عند ضفاف نهر صغير تمتد فروعه الى غابات النخيل ، نظرتُ الى الماء باحثا" عن ظلّ العرجون القديم، فخشيت أن يكون قد ابتلعته الحوت كما كانت تخبرني جدتي العجوز بذلك كلما افاقت من هذيانها عن الغائب الذي لم أعرف من يكون حتى الثالثة عشرة من عمري . ففي ظهيرة ذلك اليوم الكانوني ، حيث كنا قد اعتدنا إلقاء جدتي فوق سطح الدار لتنعم بأشعة الشمس الدافئة، و كان بصرها قد ضعف فلا تبصر إلا أشباح الأشياء. متغافلين عنها كنت مع ابنة الجيران مستغرقين في إعادة اكتشاف أجسادنا، ففاجأتنا بصوتها المبحوح: ((ماذا تفعلان يا ملعونين!؟)) اقتربت جدتي مني.. أعادت إكساء أضلاعي البارزة بالقميص الأبيض المتسخ الذي كنت قد خلعته.. أعطتني نقوداً.. علقت في رقبتي خرزة قائلة:((يا بني أن فيها حرزاً عظيماً يدفع السوء و يجلب الحظ و يغلب الأعداء و يلجم السحرة و الكفار بإذن الله فحافظ عليه ما دمت حيا" و قبل أن تموت أعطه لصاحب الرأي من بنيك كما أعطاه لي جدك الشيخ صالح رحمة الله و أوصاني أن أعطيه للغايب، ولكن الشيخ زارني في المنام و أخبرني أن الخرزة ستقع في أيدي الكفار،

فأخذتها من الغايب عندما نزعها من عنقه و علقها على باب غرفته قبل أن يدخل بعروسه،..)) اخذت بئر الدمع تنزف قطراتها العملاقة فقلت لها بعناد :((نساء محلتنا يقلن ان أبي هجر أمي و هرب في الليل مع امرأة أخرى و ذهب خلف الحدود المظلمة و ابتلعهما الـ..))،لكنها كانت تسكتني بضمة حنان الى صدرها الضاغط بقوة على فمي المفتوح. كان صدرها ينشج و هي تقول بصوتها الحزين ((يا غريب، لقد كبرت و اصبحت تفهم مثل الكبار..، و قبل ان يُحشى رأسك بالاكاذيب يجب ان أخبرك عن الغايب))

من هو الغايب؟!

((.. الغايب هو ابن الحلم الكبير الذي أطبق عليه و أراده أن يستمر لكنهم أيقظوه في منتصف ليلة شتائية باردة وهو بملابس النوم ، حيث كان يتصبب عرقاً رجولياً محموماً بعد مضاجعة عروسه التي كانت فزعة حين انتزعوه من فراشها .سُلطت عليهما أضواء المخبرين والشرطة والقوادين الذين تفرجوا على بياض عريها ، لم تند عنها أية صرخة أو عن أبناء محلة (أبو الحسن) الغارقة في ماء البرك والمستنقعات. وضعوه عارياً أمام الجدار المقابل لمركز الشرطة ، حافي القدمين ، عارياً ً من كل شيء إلا من سروال داخلي امتلأ بالدماء النازفة اثر الركلات وضربات العصي المطاطية الصلدة . انهالت عليه الشتائم بكل لهجات الطواغيت واللصوص وتجار الدماء من كل العصور، لكنه صرخ بهم . . يسقط الطاغية . . تسقط الدكتاتورية . . يسقط مخبرو الامن . . يسقط الاعور الدجال . . يسقط السفياني... يسقط صاحب الزنج . . يسقط ال. . ..واستمر هاذياً بنبؤات وملاحم غريبة لم يعرف إنْ كانت بخصوص أجداد أم أحفاد محبوسين تحت الأرض في ظلمات معسكرات عمل عبودية ،كان يريد أن يستمر لكن الرجل الذي وقف طوال حياته ضد التيار سقط أخيراً ً وجرفه التيار الذي يمضى نحو المستنقعات الآسنة حيث وجدوه بعد عدة أيام لم ينقطع خلالها سقوط الأمطار . وجدوه وقد حُشرت في جسده الجرذان الميتة واكل النمل الأسود العملاق عيونه النرجسية نافذاً إلى قلبه الأخضر الذي أحب الأطفال و العمال والشايات الصباحية وتبادل ((الله بالخير)) مع الرجال الذين كانوا يجتمعون في محل النجارة الصغير الذي يملكه في

نهاية السوق ، حيث كانت تجلس عند بابه المغلق بعد سنين أمه العجوز وقد خرفَ عقلها وتردد باكية : ((غايب . . ابني غايب متى ترجع ؟)). استمر هذا الصوت الشائخ الذي انتهكته صرخات الفقدان الأليمة بمطاردتي في كل جبهات الحرب حيثما كنت أطارد الموت المولود من كل ضحية جديدة له ،يعانقها ؛ ويتركني ؛كنت ادعوه بكل أسمائه المقدسة والشيطانية، كنت انتظره لكنه في كل مرة كان يخذلني ولا يلبي دعوتي ، أنا المضياف ابن الآباء والأجداد الذين لم تخل مضايفهم يوماً من مسكين أو يتيم أو عابر سبيل انقطع به الدرب ولم يصل إلى من يهواه . كما فصل هذا الشط المُدمى بيني وبين من يسكن بطن ابنة الجيران التي تزوجتها ، لكنها فرت بعد ستة اشهر من زواجنا مع أهلها ضمن مئات الأطفال والنساء والشيوخ . كانوا يسيرون ككتل بشرية صامتة عابرين الجسر الحديدي الممتد فوق شط العرب في ليلة غاب قمرها فلم يكن ثمة ضوء سوى أضواء القنابل المتساقطة . كانت الشظايا الملتهبة تمرق فوق رؤوسهم المنخفضة مصدرة آهة مكتومة وهي تغور في ظلمة الشط النازف .

لم أكن بعيداً عنهم فقد كنت ضمن فوج عسكري نخوض قتالاً ضارياً في منطقة(نهر جاسم) لم أفارق ساحة القتال حتى نفذت تلك الشظايا اللعينة إلى مفصل ركبتي اليسرى لتتركني مسجى فوق جثث القتلى والجرحى.

عدت بعد انتهاء حرب السنوات الثمانية متوكئاً على عكاز تين طبيتين ، لم أجد من أهالي محلتي القديمة أحداً ، سألت الأطفال الصغار المولودين في سنو ات الحرب ، أرشد ونى لبيت متهدم تسكنه امرأة عجوز مخرفة العقل تعيش على الصدقات ، لم تعرفنى ، ولم تتذكر أي شيء عن الماضي سألتها : ((من هو الغائب ؟))

أشاحت بوجهها عنى ولم تجب قط . رويت لها دون جدوى التاريخ الذي حفظته منها .. تاريخ رائحة البحر التي سكنت أباريق القهوة في مضيف الشيخ صالح ثم أصبحت رائحة نتنة تسكن في مستنقعات وبرك المدينة ، جارحة ومفرغة من كل روح ، كهذه الريح التي تعوي ، تعوي كصوت هذا الذئب البشري الذي أنجبه الظلام . وضع كفه الغليظة حول

عنقي واخذ يضغط بركبتيه الخشنتين على ظهري ، كنت لا أزال جالساً عند جرف النهر منكباً على أوراقي التي اكتظت بأحداث الحكايات التي كانت تسري في جدار الزمن كشرخ لا يندمل ! خيوط الزمن تتشابك وتتقاطع في ذاكرتي فلم اعد أميز بين الوجوه ، ولم ادرِ في أي زمن أنا الآن ... سألني بسخرية : ((ماذا تفعل هنا يا ملعون؟ هل معك نقود ؟))

ابتسمتُ له دهشاً بطفولة شمس شتائية ، لكنه اخذ يخلع عني قميصي الأبيض المتسخ، فشعرتُ بالخجل حين بانت أضلاعي البارزة الواهنة التي غرس فيها ، قرب القلب ، نصلاً بارداً حاداً ! تمسكتُ به بحنان كأني أتمسك بعنق جدتي النحيل ..،.. همستُ بصوت واهن : ((ماء ... ما .. أني أموت)) اخرج قنينة مملوءة .. فتح فمي .. بهدوء سقاني حتى آخر قطرة .. كان طعمها حارقاً.. قال لي بجنون ((كحول .. اشرب انه كحول لذيذ !))

أخذت الصورة تترنح أمامي ... رمقتُ أنيابه البارزة حين اخذ بالابتسام .. ثم دوّى في الفضاء صدى ضحكة ساخرة عظيمة هزت المدينة الغافية.....

قبل أن يرحل القى عقب سجارته داخل فمي المفتوح . . فألتهبت أمعائي بنار متقدة . . . ساح الجسد في الماء نازفاً كل دمي .. وتناثرت الأوراق المسودة لقصتي فوق صفحات الماء والتهبت الحروف بالنار . .أخذت الصورة المتأرجحة تتضح تفاصيلها أمامي . . . عند الفجر وصل النعش المتقد إلى ضفاف نهر سيحان..كان الإنسان وكل تواريخه قد صار رماداً . . . الناس الذين جمعوا رماد الحكايات، الذين لايزالون يؤرخون أيام حياتهم بسقوط الأمطار، اخذوا يتحدثون عن اكتمال علامات الفرج معززين رأيهم انه قد فسد الملح و الماء. حفروا قبر أحد الأولياء الصالحين. .دفنوني فيه . . كانوا يتبركون بالقبر ،هازين بيرقه الأخضر قبل نزولهم إلى البحر دون عودة !

.....

٢٠٠١/١٩٩٦

١

موت وجه القمر الآخر

دعكتُ شعره بالدهن وجسده بالزيت والكافور ، شمُمته رائحتـه ، غسلتُ اعضاءه الذكرية بماء بارد . كان بطنه منتفخاً ، وقد عـاودتْ سـاقه اليمنـى عوقهـا الطفـولي القـديم. رجل من هذا العـالم جـاوز الخمسـين بقليـل، أعطـى الحيـاة آخـر نطفـة ، لم تحتـوه رهبـة القداسة، وحيداً عاش كما مات، في أواخر ليلة شتاء عاصفة، رقصت فيها الأشجار كعجريات متباهيات بشعورهن الشعث الكثيفة. مشطتُ شعره وعصّبته بعمامة بيضاء صغيرة ثم قمّطتُ جسده بالبياض كطفل مدلل . أكملتُ سيجارتي عند باب الغرفة إذ لم يكن معي أحد سواه بعد أن تركونا وحدنا في المغسل ، فقد أصابت سهام الوحشة قلوبهم بعد انقطاع التيار الكهربـائي فمضوا الى بيوتهم وإلى نسائهم وإلى زعيق أطفالهم. أخذ ضوء القمر يتسـلل مـن خلـف الغيـوم ويزحف من مدخل الغــرفة رويـداً .. نحـو جســـده. دخلـتُ الغرفـة، أردتُ اشـعال الموقـد لأتدفأ ،تذكرت أنّ روح الميت تخشى النار. سرت في جسدي رعشة خفيفة، لم يكن يفصلنا عن الفجر سوى ساعة أو بضع ساعات، أردتُ أن أسرّي عن وحشتي بقـراءة المعـوذات والأدعيـة، لكنني كنت أشعر اختناقاً في تنفسي . استلقيتُ قبالـة جسـده، وصـل ضـوء القمـر إلى وجهـه تماماً، أخـذ يبتسـم ... يبتسـم ... تكـبر ابتسـامته، ارتجفـتُ، اعترتـني رغبـة في أن أقبـلّ شفتيه، قرّبت فمي منه ببطء .. قليلاً .. يؤسفني أن ينتهي رجل مثله مشيعاً بالشـفقة. كـان رجلاً صالحاً لأداء كل الأعمال البشرية، فقد عاش مسالماً، متواضعاً، كابد آلامه دون شـكوى، غير أنه على غير عاداته حلم ذات ليلة بامرأة سوداء اللون تجلس بين قرنـي جـاموس أسـود وقد فرجت ساقيها ... حين انكشفت عورتها .. بانت أمام ناظريه ... خرجت نيران ودخـان من منخري الرجل الصياد الذي تقدم لاغتصابها ... حين رفعت فخذيها أمام أشعة الشمس .. اختفـت قــرون الجـاموس .. زال لـــــون المـرأة الأسـود .. اكتسـى جسـدها العـاري ببيـاض الأموات ... الرجل البدائي الذي لم يكن قد رأى الموت من قبل ولّى هارباً صوب حقول ذهبية تملؤها السنابل وأحجار الفسفور اللامعة .. جُرحت أقدامه وسال الدم .. اختفت أنفاسـه مـن اللهاث ... قبل غروب الشمس حين ذهب عنه الخوف جلس منهكاً .. جائعاً.. لم يجد حوله سوى أزهار قرنفل .. مضغها بنهم علـى الـرغم مـن حرارتهـا .. هـدّة التعـب .. غفـا .. عنـد

الفجر .. فرك عينيه .. تثاءب .. تحركت في منتصف فمه عضاءة أفعوانية صغيرة كانت قد نمت بسرعة ليلة امس .. شعر بالفزع من لونها الدموي الباهت حين رآها على صفحة الماء .. دُهش من منظر وجهه الغريب ... حلق شعر وجهه .. جرح ذقنه .. سال الدم .. كان لديه عطر صناعي .. سكب القطرات المتبقية منه .. شعر بالحرقة .. أصدرت الأفعى الصغيرة التي في فمه صفيراً جافاً .. كان المذياع إلى جانبه يثغو بأغنية جماهيرية .. استمر في ترتيب هيئته أمام مرآة غرفة الاستحمام .. عدّل من وضع ياقة سترته الزرقاء الباهتة المقطوعة الزر الاسفل .. كان سرواله يحتاج إلى كيّ ... انشغل فجأة بتحسس ألمٍ مفاجيء في ساقيه .. خطرت في ذهنه صورة ساقي خائفٍ تعدوان تلاحقهما أصوات طبول وأضواء.. قمر مكتمل يطل بوجهه الساخر من خلف أغصان الاشجار الشريرة .. اقشعر جلده .. ابتعد عن المرآة .. ، وقف عند مدخل غرفة نومه رأى امرأة بيضاء الساقين نائمة في الفراش، كانت نائمة على وجهها حيث كان شعرها الأسود المنكوش يغطي نصف ظهرها العاري، كانت زوجته ميتة! خرج هارباً ..، غاصت أقدامه في الاسفلت الموحل ، تتطلع الى أطراف السماء البعيدة ، كان هناك حقل بسنابل وصخور ، كان ثمة خشوع وصمت . حين وصل إلى مكتب عمله كان منهكاً ، تطلع إلى وجوه الموظفين والموظفات بفزع ،شعر بالخوف حين رأى وجوههم استبدلت ملامحها البشرية بتصدعات صلبة كقشور البيض. أخرج كل منهم أفعاه الصغيرة من فمه وأصدروا أصواتاً ، فأدرك أن معنى هذه الأصوات هو الأتهام بتضييع الوقت . اتهامه هو الذي كان يُدعى حامد الشيخ بن زاير سلمان والذي هجر منزل جدّه المصنوع من الخوص والطين على جرف نهر صغير في(ميتان)* وسكن أقفاص المدينة وعاشر أهلها المصنوعة قلوبهم من الرماد ، الذين كانوا يستطيعون تحريك أفاعيهم متى أرادوا مصدرين أصواتاً بشعة . كان يدرك فطرياً معناها ، لكن أفعاه كانت مشغولة دائماً بمهاجمة أسنانه دون هوادة ، كانت أسنانه تُوقِع أفعاه في كماشة وتُدمي رأسها الصغير . استمروا طيلة النهار في تحريك أفاعيهم أمام وجهه ، طأطأ رأسه فصدم نظره منظر قدميه الحافيتين المجروحتين وخيوط الدم التي تجري تحت مكتبه . مرت لحظة رهيبة انفجر بعدها ضاحكاً ..، انفجر

بركان الضحكات الساخرة ..،.. انتبهتُ من نومي مرعوباً : من كان يحلم بمن !؟ لقد قصّتْ عليّ روحه مأساة حياته . هل أتركهم يعذبون جسده المسكين بـألآم الـدفن ، متشـفّين بإهالـة التراب في حفرتي عينيه اللتين كانتا تنظران إليَّ بعتب وذهول : هل ترضى لي هذه النهايـة يا حبيب !؟ اقتربتُ منه ، أنهضته من المغسل، أمسكتُ بكفّ يده وساعدته علـى الفـرار إلى الحقول القريبة . لعلّي ارتكبتُ جريمة في حق المجتمع بمسـاعدتي ميتـاً علـى الهـروب مـن الدفن . تشبث بي الرجــل بقوة فقد أحبني كثيـــراً ولم يسمح لي بـالعودة قـط . حلّقتُ مـع روحه عالياً ..عالياً ..أخذ جسده يصغر أمام عينيّ ، المغسـل والحقـول المحيطـة بـه وأضـواء قرية (ميتان) تبتعد .. تبتعد ، كـرة الارض الصـلبة تتحـد تفاصـيلها متخـذة شـكل شـعلة بيضاء متراقصة في منتصف بؤبؤي عينيه .

في الصباح تجمع النـاس ،الرجـال العابسـون والنسـاء النائحـات ، حملـوا تـابوتين خفيفين كريشتين بلا ذنوب واتجهوا نحو المقبرة . دفنوا الرجل الذي جُنَّ بعد أن قتل زوجته وانتحر، بعد سنتين من هروبه من مستشفى الامراض العقلية . وبعد ذلك دفنوا الشاب الـذي مات إثر نوبة قلبية فاجأته وهو مستلقٍ على ظهره على دكة المغسل ،وقد نقـش القمـر ضـوءه الذهبي في بؤبؤي عينيه إلى الأبد .

.. ،...

.. ، ... ، ...

في الأزمنة التي تلتْ، في الليالي الشتائية الطويلة حـين ينقطـع التيـار الكهربـائي وتعود الفوانيس الجنوبيـة الحزينـة إلى التمايـل بغمـوض ، كـان الرجـال والنسـاء يحـدّثون أطفـالهم حـول مواقـد النـار الخافتـة عـن رجلـين عـاريين ، يُشـاهدان في مثـل هـذه الليـالي يتسكعان ، يتعابثان ، يتعانقان ، يتحاربان ، ضاحكين ، نـائحين ، دون أن يعـيرا اهتمامـاً لأحد . يحتفلان بالحياة والموت والحياة و ... لا يفترقان أبداً كولد شقي وأبيه ! .

- ميَتان : احدى القرى القديمة التابعة لمدينة البصرة ٢٠٠١/١/٧

ليلـة السبـت

أصوات انفجارات داخل رأسي .. انفجارات متتالية.. أمواج الماء .. تصعد إلى الأعلى .. تهوي على رأسي .. مرات ومرات .. هدوء .. أصوات النوارس الجائعة .. طيور الماء تهوى سريعا تنهش في البطون البيض للأسماك الطافية على ظهورها فوق سطح الماء . السماء والأشجار وصورة وجهي مقلوبة في عيون الأسماك الميتة .. تسحبها الشباك نحو الساحل[1] .. أسحب رأسي من تحت الوسادة .. أنظر لسقف الغرفة ..ها هم يبدأون بالظهور من جديد ، أيديهم تتحول إلى قوائم وسيقان ،آذانهم تتدلى نحو الأسفل ، جلودهم الصوفية مجزوزة .. هاهم .. وا..حد.. إث....نان ..ثلا ...ثة أربعة خراف ، ومنذ الطفولة كان الخروف الخامس يُفترس من قبل قطيع الذئاب الذي كان يأتي وسط ثلج أحلام اليقظة . الذئاب والخراف تبدأ بالاختفاء .. لا يتبقى سوى خيوط وبقع دم حمراء تستحيل إلى ازرقاق عتمة بحرٍ تترجرج أمواجه فتتحول إلى رمادي معتم ، مكدر النفس ، عندها تبدأ أشياء الغرفة الغاطسة في مياه بحيرة كدرة بتغيير نسبها..بعضها يكبر .. يقترب من العين .. الآخر يبتعد ، يصغر .. آنية الزهور فوق خزانة الكتب تتمدد حتى السقف .. الثلاجة البيضاء تبعد وتصغر تصبح بارتفاع السرير . يبدأ جسمي بنز العرق البارد تحت الدثار .. أُبعِد الدثار عني . سعفات النخلة وأغصان شجرة الكالبتوس تتطاول وتقرع نافذة الغرفة .. لا أفتح ، لكنها تمد أشباحها داخل الغرفة[2].. أعيد الدثار الذي يجثم الآن على صدري كجثة فقمة نافقة ..أنفاسي تختنق ، أحاول نسيانهم .. لا .. محاولة نسيانهم سوف تستدعيهم .. سيظهرون مرة أخرى ،أمنع نفسي من التفكير بهم .. ليسوا موجودين .. ولم يكونوا يوما وعلى فرض وجودهم فلا علاقة ولا شأن لي معهم، ماذا يريدون مني؟ بأي شيء يفكرون ؟ ها هم يظهرون..أبدأ بالارتجاف .. ما يخيفني أنهم لا يفكرون، ليسوا لأنهم لا يستطيعون ذلك ..بل لأنهم مشغولون بأفكاري، بما أُوحي لهم به.. إنهم يدّعون أنني واحد منهم، وللحظة بدأتُ بالاعتقاد بذلك.. و أكثر خُيّل إليَّ إنهم يسكنون داخلي..أنهم لا يظهرون إلا حين يجفوني النوم ليلا . ولكن الحقيقة أنهم أخذوا يظهرون في وضح النهار متنقلين في شوارع المدينة بأوجههم المثيرة للرعب والشفقة والشعور بالخزي وربما بشعور أعظم ينذر

بقرب حدوث كارثة غامضة الأسباب[٣] . وما كان يثير حنقي أن الآخرين من معارفي و من عامة الناس لا يدركون وجودهم ..ربما يتظاهرون بعدم وجودهم ، وللحظة ظننت أن الآخرين أذكياء ، إذ أنهم نجحوا فيما فشلت فيه فقد توصلوا إلى اعتبارهم غير موجودين للتخلص من لعنتهم ولكي يستطيعوا النوم ليلاً بسلام . ولكني اكتشفت أن الآخرين قد وقعوا أيضا في مصيدتهم ، فكل ما في الأمر أنهم مثلي لا يستطيعون أن يبوحوا بأنهم يرونهم ويسمعون صوت همسهم و همهمتهم الحزينة والمقيتة التي تشبه أنينا مكبوتا ، كما لو أن يداً ضخمة وُضعت على فم وأنف من يريد أن يتقأ شيئاً ضخماً يسد مجرى تنفسه ، والواقع أن ما يوحي لي بهذا الشعور المقرف هو وجود تجويف كيسي ضخم يمتد بين أذقانهم وحناجرهم ، خلت أنهم يحتفظون داخله بمادة دهنية تساعدهم على قذف الكلمات المبهمة من أجوافهم إلى الخارج . كانت كلماتهم مصحوبة باللعاب ، يبدو أن أصوات حروفها لا تنبع من مخارج الأصوات في الحنجرة أو في الفم بل أنها كانت تندفع من أجوافهم مباشرة أو تنزل من أنوفهم مصحوبة بكمية من البلغم الملوث بالدم . كنت أحاول جاهدا أن افهم ما يريدون قوله .. لعلهم كانوا يريدون بث شكوى معينة. وليالي طويلة سيطرت عليّ هذه الفكرة .. إنهم يريدون أن يتدخل أحد ما ويغيرهم ..ثم بمرور الليالي .. انتابتني حالة من اليأس ، فلم يكن بإمكاني أن أغيرّ أياً منهم . ربما أن جلّ ما يريدونه هو أن يكفّروا عن ذنب اقترفوه .. إنهم يريدون أحداً يساعدهم على تطهير أنفسهم.[٤] وما كان يوحي لي بهذه الفكرة هو حاجة أجسادهم إلى التنظيف من القاذورات والطفيليات التي اعتاشت على مص دمائهم، مختفية في الوبر الكثيف الذي يغطي جلودهم الغليظة .. لقد كانوا يلعقون بألسنتهم كل ما تصل إليه من أجسادهم ، ولم يكن يدهشني أن ألسنتهم كانت تصل حتى باطن أقدامهم وتلتف حول رؤوسهم لتنظيف صيوان آذانهم . لقد كانوا في حالة استحالة وتغيير جسدي ونفسي مستمرين ولم أعد أعرف ما ستؤول إليه حالتهم في اليوم التالي.[٥]

لكنهم هذه الليلة شكلوا حولي حلقة كبيرة .. أصوات قرع الطبول وأغاني الصيد الحزينة تمتزج مع أصوات مجاديف تلطم أمواج البحر ..قرع طبول شديد وسريع .. يرقصون

بعنف ، كل أجزاء أجسامهم تتحرك بجنـون .. الشـخص الأخـير في الحلقـة يبـدأ بـافتراس الشخص الأول الذي بجانبه ، يلتهم أعضاءه عضوا ، عضوا.. قرع طبول وصراخ .. أضواء حمرٌ وزرق.. أمواج البحر تزداد صخباً في ارتفاعها و هبوطها .. تخرس نشيد الصيد.. يخرسها نشيد الصيد.. الشخص الأخير يصبح الشخص الأول .. الجمهور الملتف حول الحلقـة يطالـب الحلقة بشئ مجهول .. يعلو صراخهم .. صراخ، ابتهـاج ،غضـب .. الشـخص الأخـير يبـدأ بالتهام الشـخص الأول الجديـد .. ويسـتمرون هكـذا..طبول ..طبـول، رقـص مجنـون ..كـل الجمهور يرقص الآن ..وحالما ينتهي أحدهم من افـتراس الشـخص الـذي بجانبـه يكـون هـو الضحية الجديدة التي يـنقضّ عليهـا الشـخص الآخـر الـذي بجانبـه . لكـن الحلقـة لم تكـن تتناقص أبداً ، إذ أن الجمهور كان يمدها بالمتطوعين الجدد .. كـانوا يطـالبونني أن أنضـمَّ إلى الحلقة صرخت بأعلى صوتي .. لا .. لا .. جذبوني مـن ذراعـي .. رفسـوا خاصـرتي .. كنـت كدودة تتلوى على عشـب نـدي .. صـوت أنـين البحـر يصـك مسـامعي، نشـيد الصـيد ينخـر روحي . . أضو اء زرق داكناء تُسلط على برك الدم الحمر المتناثرة حـول الحلقـة . .الأحمـر يتحـول إلى أرجـواني داكـن . .ثـم الى رمـادي مسـودّ . .رائحـة حـادة . . رائحـة أجسـاد تُشوى . .أجساد فسدت أعضاؤها ومُسخت إلى أعضـاء لا بشـرية . .الحلقـة تضـيق مـن حـولي أخذوا يلحسون قدمي بألسنتهم الملوثة بالدم. .قدماي ترتجفان ، تتشنجان ثم تأخذا بالتصلب شيئا فشيئا .

لم اعد أشعر بالدم يجـري فيهما..فخـذاي أصـبحتا كخشـبتين صـلدتين مملـؤتين بالنشارة الرطبة والدود الأبيض.. ألسنتهم وصلت الى بطني وصدري ..ثقل هائل أحسه يجـثم على قلبي ..لا أستطيع تنفس الهواء .. صـدري كصـندوق مـن الحديـد أو النحـاس ..تنـز مـن جوانبه سوائل كريهـة ..زيوت ودهون محروقة ...رائحة شياط . .أنفي يتحسس كـل رائحـة على حدة . .عيناي لم تعودا تريان سوى اللونين الأبـيض والاسـود . . يـداي اللتـان أصـبحتا خشـنتين تتحسسـان وجهـي . . نتـوءان بـارزان علـى جـانبي خـديّ المملـوءين بالشـعر الخشن . .أزحف نحو الباب . .أتشبث بطرف السرير . .أسقط على الأرض.. أسحب جسـدي

الصخري.. يداي تمزقان كل ما تمر به . .فمي يُصدر أصواتا ترعبني .. . . تأكدت أن الباب مؤصد باحكام ..كنت أخشى أن يحطموه ..جموعهم خلف الباب تستعد لسحقي وافتراس أعضائي ..بحثت عن شئ أدافع به عن نفسي ..كان ظلام الغرفة حالكا ..كان أملي الوحيد أن ينبلج الفجر فتتمزق صورهم ويتبعثر جمعهم ، أو أن اخدعهم بان أضيء مصباح الغرفة . .حاولت الوصول إلى زر المصباح ، لكني أدركت أنني الآن أواجه المرآة تماما فتملكني رعب قاتل في أن اضغط على زر المصباح ، ففي المرآة يترقبني واحد منهم !

****

١. هواء البحر البارد ينفذ إلى عظامي إثناء تجوالي بين أكوام الأسماك التي أفرغتها المراكب عند لسان الساحل . بدأت السيارات الفارهة بالوصول . .نزل أصحابها ذوو الكروش المنتفخة . .موظفو هيئة بيع الأسماك هرعوا إليهم لعقد الصفقات السرية بينهم وبين أصحاب المراكب .لن أستطيع أن ادخل أي مزاد فمن يمتلك البر يمتلك البحر ، كانوا يتحكمون بأسعار السوق فالمراكب التي تبيع خارج المزاد تُصادر حمولتها .

كنت و أمثالي من المغامرين الصغار نبحث عن تلك المراكب التي ترسو على بعد مسافة من الساحل لكي لا تخضع لابتزاز موظفي هيئة الصيد ، الذين كانوا يأخذون عمولتهم الدسمة من التجار .دخلت مع شخصين آخرين في سباق محموم للوصول أولاً إلى احد المراكب التي نأت عن ساحل المزاد. كان لجو آذار المتقلب يد خفية في تسيير أمور هذه التجارة المحفوفة بالمراهنات . نزل وابل المطر على رؤوسنا . .كان نصف جسمي البارز فوق سطح الماء يصارع هذا الجو الغاضب فيما أنغرست قدمي في الوحل . دخل احد الأسلاك الشائكة المتروكة بعد انتهاء الحرب في قدمي . .سال الدم الحار. .شعرت بحرقة ماء مالح يغسل الجرح و افو اه الأسماك الصغيرة تلتصق

به . .تمتص الدم . .السمك يملأ جوف المركب . .قلبت الأسماك ، كانت جميعها منتفخة البطون ومفقوءة الغلاصم.

((– منتفخة من المطر !))

قالها الرجل ذو الأسنان العريضة المتفرقة ضاحكاً و غمز للرجلين الآخرين اللذين دخلا إلى قمرة المركب هاربين من المطر ، سألته مستغرباً :((– أ قتلت بالمتفجرات !؟) أفرغت السماء شحنة نقمتها في الماء . .صمتنا . .دوى صوت الرعد بشدة . .ارتجفتُ من البرد . .قال الرجل ((–السمك أمامك ، لا مساومات ولا هيئة)).

أخذت بعد النقود . .مد الرجل يده . .فاحت رائحة زفرة حادة . .امسكَ رزمة النقود المبتلة بالدم !

* * * *

٢. ((– سيعطيك أبونا ثمن السمك بعد يومين)).كانت عائلة صديقي زهير زيا قد رحلت إلى المدينة منذ سني طفولتنا، التقينا من جديد في علوة الأسماك ، اصطحبني إلى بيتهم . اللوحة الكبيرة للام التي تمسح بيدها الرقيقة راس وليدها العاري ما تزال في غرفة الاستقبال غير أنها أضحت باهتة الألوان.كنت متعبا فلم استطع التعرف على القسمات الهادئة لوجه الرجل الذي دخل مرتديا جبة سوداء ،طويلة و واسعة الأكمام .غير أني تذكرت صوته الذي أصبح اشد حزنا ((– أيها الطفل الشقي ..يا ه ، لقد كبرت لكنك لا تزال تفاجئني بمقالبك الجنونية وتلعب معي لعبة التاجر والفقير ..))

ارادنى أن اضحك ، لكني صافحت يده النحيلة بجد واندهاش ، لقد أكلت المدينة شبابه تركته كشبح يرتدي السواد بعد أن خلع قميصه ذا الورود الحمر والرصاصية الذي كان يرتديه في أثناء عمله مع والدي في صناعة القوارب الخشبية القديمة . كان أبي يبارك كل مركب جديد حين نزوله إلى البحر لأول مرة بقراءة سورة الفاتحة والمعوذتين فيما

كان عمو زيا يعمده بان يضع يده على جبهته ثم على الجانب الأيمن والأيسر من صدره ويحرك شفتيه بكلمات لم استطع سماعها يوما .

* * * *

٣. تركنا زهير وذهب للتنزه مع إحدى قريباته ، مصطحبين معهما كلبا أبيض ذا شعر قطني الملمس . كان الكلب يبتعد فيبتعد عنا صوت الجرس المعلق في رقبته .قدمت لي غيداء قدح شاي وابتسمت لي ذات الابتسامة الطفولية العذبة التي منحتها إياي يوما ونحن نختبئ معاً تحت سرير القصب ، تحولت إلى ضحكة عالية فضحتنا و جعلت زهير يعثر علينا لينتقل دور الشرطي إلي بعد أن كنت وغيداء (حرامية) نتبادل القرصات الخفية تحت سرير القصب.

– أين ذهب خيالك . .؟

– ها. . ، احم . .شايكم لذيذ .

– والمشروب . .ألن تجربه ؟ الشباب كلهم يشربون . .

– المشروب يحرمه ديننا .

– دينكم يحرم أشياء كثيرة . .المشروب ولحم الخنزير والسمك الميت . .أليس كذلك ؟

– ماذا تقصدين ؟

((–مرحبا)) .((–مرحبا. . أعرفكم . .ابنة خالتي لوليتا وخطيبها. . . صديق أخي زهير))

ثنت ركبتيها وجلست فوق بساطنا . .فخذاها مجدافان . . ويداها شراعان . .كانت عيناها اللوزيتان ترسلان شررا خفيا كلما نظرت إلي ، وحينما التأمت حلقة الرقص انتظمتُ إلى جانبها في إحدى الدبكات . .رقصنا ملتصقي الأكتاف . .صدرها المرتج أخذ ينز عرقاً معطرا بعث فيَّ خدرا لذيذا ما لبث أن تحول إلى شعور عدواني. كنت افترسها في خلوة هذا البر. .أشجار الأثل اللائي تحولت إلى نساء يشبهنها. .ركضن أمامي و هن يصرخن بغنج ودلال. .لم يسمح لها سروالها الضيق أن تجري أكثر فتعثرت وسقطت في

شبكتي . .في شب . . .

((– شباب . .هيا شباب ، استمروا بترديد أناشيد الصلوات . .)) قالها زهير بصوت عال ،فيما كان أبونا ينظر إلي بعينيه الهادئتين .كنت صامتا كمقبرة تخفي أسرار موتاها ، موزعا نظري بين ما يجري داخل الباص الضاج بأجساد الفتيان و الفتيات وبين أشجار الأثل التي استمرت تركض مبتعدة . . .

* * * *

٤. رفعت ستائر الغرفة ..دخلت أشعة شمس آذار ..ملأت رائحة الغبار االغرفة.كانت غيداء تكنس أرضية الغرفة ..حركت جسدي ..فتحت عيني قليلا..كانت أشعة الشمس تسقط على ظهرها ..على كتفها البيضاء .. أدرت وجهي متصنعا النوم ..

– انهض يا كسول ..

– أين زهير؟

–ذهب إلى سوق الجمعة ....أحضرت لك الإفطار . .

أخذت بمضغ اللحم والبيض ووجه غيداء ..فكاي يتحركان ببطء ، أحس بوجهي يتقلص

ويتمدد بفعل صداع خفيف تبقى لي من كأس سهرة الليلة الماضية ..

– هل تذكر ..حين كنا صغارا ، كنت ادعوك "الاسود" ؟

– ها .. وهل أنا اسود حقا !؟

– لا اسمر ..طبعا ..انتم أكثر سمرة منا .

– منكم !؟ وهل تختلفون انتم عنا . .نحن وانتم شعب و احد .

– لا . .أجدادنا كانوا برتغاليين و إيطاليين جاءوا لهذه المدينة كفاتحين ومبشرين ثم استوطنوا مع السكان العرب .

– هذه أكاذيب . .الحقيقة أن نبو خذ نصر أتى بأجدادكم من فلسطين ثم أنكم دخلتم في دين تبع الحميري حين دخل مدينة الابلة فاتحا .

–وماذا يعني كل هذا . .؟

- يعني أنكم منا ولستم غرباء عنا . .

– لا تزعل . .فنحن منكم . . وابتسمت ابتسامتها الطفولية الأزلية الغامضة .

* * * *

٥. لم يبق لي سوى ساعات وارحل عن هذا البيت ..أتسلم نقودي وارحل ..صوت الأذان يُقبل من جهة مسجد صغير أرى منارته العالية من نافذة غرفتي ..الله اكبر..يد ذات كم ابيض تصافح يدي لعقد صفقة تجارية ..الله اكبر..يد ذات كم اسود تفتح لي باب سيارة فارهة ذهبية اللون ..اشهد أن لا اله إلا الله ..عيون غيداء الطفولية تبتسم لي بعذوبة ..اشهد أن ....لم اعد اسمع صوت الاذان فقد كانت اصواتا شيطانية تصرخ داخل جمجمتي والصراع معها يشتد كلما ارتفع صوت الاذن ..سقطت من السرير .كأني سقطت من جبل شاهق الى وادٍ سحيق ...تمرغت في الوحل .. رفعت راسي ...صارت عيونها رباً لي اعبده من خلف الظلمات .. حي على الصلاة ..لا استطيع النهوض للصلاة .. الصداع بدأ يغرز أظافره الوحشية في خلايا دماغي..حي على الصلاة .. إناء الماء بقربى .. أمد يدي للوضوء .. الدم يلوث الماء .. سمكة تنزف دمها في قعر الإناء ..أبعده عني ..أحاول العودة للسرير .. حي على الفلاح...أحس برغبة بالتقيو ..حرارة جسدي تبدأ بالارتفاع .. حي على الفلاح .. اقذف سائلاً أخضر من فمي .. اقذف كل السمك الذي أكلته في وجبة العشاء، رأسي منكس لقذف القيء .. عيناي مغمضتان .. صحن يحوي رأس سمكة وعمودها الفقري الملوث بالدم .. شوكة طعام في أطراف رؤوسها قطرات دم ..لا اله إلا الله .. أبونا يقف عند الباب ينظر إلي بعينيه الحزينتين..

يد زهير تربت على ظهري بلطف : ((– لماذا لا تنام ؟))

آب/٢٠٠١

رُقية بابلية

فتح عينيه في ظلام غرفة التعذيب، حاول تحريك قدميه الموثقتين إلى سقف الغرفة بحبل غليظ تم عقده بكلاّب معدني، لكن دون جدوى، اختلجت شراايين رأسه المتدلي في الفراغ بالدم لتصطبغ، مرة أخرى، حواشي ورقة التوت المرتسمة في مخيلته بخيط دم يمتد على حدود مملكة بابل و آشور التي حُفرت فوق أنسجة ورقة التوت بختم ملكي يعود للملك الآشوري اسرحدون.

لقد تفحص كل الألواح، و حقق كل النصوص المكتوبة باللغتين الآشورية و البابلية و توصل إلى أشد النتائج دهشة. توصل إلى أن الكاهن الأعظم خدع كتبة التاريخ كما خدع المنقبين الغربيين و المستشرقين. لكنهم لم يصدقوه، اتهموه بمحاولة تزييف نصوص التاريخ و التحريض على إثارة الشعب ضد الرئيس القائد. اقتادوه إلى زنزانة التعذيب حيث يرتسم الآن في مخيلته وجه الكاهن الأعظم مار–عشتار بردائه الكهنوتي الفضفاض و زرقته الداكنة التي تزيد من غموض وجهه الاجرد المغلف بصرامة مقدسة و هو يجثو فوق دكة مذبح الآلهة طالبا من الآلهة العون في تجاوز المحنة المحيطة بسيده الملك الآشوري اسرحدون ، فالشؤم المتمثل بكسوف الشمس سيحل وسيدمر المملكة ،إذا لم يتوسط ابن السماء لحل الخلاف بين اله الشمس واله القمر المتصارعين حول سيادة أبراج السماء ألاثني عشر .سخر الكاهن من كل هذا في قلبه لكنه لم يبتسم لكي لا يُفتضح أمام الآلهة وكتم سره في أعمق خزائن قلبه حين نهض ورفع يديه أمام مجلس الحرب الذي يترأسه الملك قائلا: ((أيها الملك المقدس فليمسك ابن الرعاع بالصولجان ساعة سقوط قرص الشمس في ظلمة العلم الأسفل المتصاعدة حتى عنان الأفلاك ،فتحل لعنة الآلهة عليه بدلا من عبيدك وإمائك وعلى ذهبه وفضته وقصره بدلا من ذهبك وفضتك وقصرك المنيع.وسنحرق بعدها الملك البديل وكل ما يملك في الأتون المقدس الكبير ،ونذر رماده على قمم جبال مملكتك ولتحل اللعنة بمردة الجبال ولتسلم لبلادك المباركة يا بن سليل الملوك الخالدين)).

نهض الملك والملكة فنهض أعضاء مجلس الحرب الثمانية. لم ينطق أي منهم بأية كلمة ،ملتزمين كعادتهم بالصمت حينما يصدر عن المعبد أمر مقدس .فمن يعترض أو يفكر

تقتله الآلهة مخنوقا في فراشه أو يسقط خائرا في بركة دمه في احد دهاليز البيوت المشبوهة اثر طعنة مقدسة من احد عبيد المعبد الغامضين الذين يتم تربيتهم منذ طفولتهم على طاعة أوامر الآلهة الذين لا ينطقون إلا من خلال حنجرة الكاهن الأعظم.

اختفى الملك وزوجته وعبيده وجواريه وذهبه وفضته وأُغلق قصره قبل ثلاثة أيام من يوم الكسوف المشؤوم ،وجلس على سدة العرش ابن الرعاع القادم من جبال المتمردين التي تختفي قممها بين الغيوم ،حيث تسكن نسور مملكة أشور التي انقضت على الجثة المنخورة للأسرة الملكية التي أغرقت البلاد في الفقر والظلم والمجازر الوحشية .بارك الكاهن الأعظم الملك الجديد بطاعة إرشادات المعبد الأعظم بعد أن بدأ الملك القديم بمحاولة فرض سلطته على الدولة بعيدا عن مصالح الكهنة وأطماعهم اللامحدودة .

وفي يوم الكسوف حيث سقطت الشمس في ظلمة العالم السفلي ، وبعد أن حُظر التجوال على الشعب ، تم إبادة الملك وحاشيته في مجزرة وحشية و تم دفنهم في مقبرة جماعية سرية و أُعلن في اليوم التالي بعد أن بزغت الشمس مرة أخرى أن الآلهة قد نفذت أمرها في الملك البديل وسلم للبلاد راعيها . ولم يشك احد في الأمر فلقد كان الملك البديل شبيهاً بالملك اسرحدون في كل شيء، قسمات وجهه ، صوته، نظراته المتعالية، قامته المديدة، حتى في لحيته ذات الشعبتين الكثة الشعر.

استمر الملك الجديد تحت اسم الملك الآشوري اسرحدون في إصدار الأوامر العسكرية الصارمة ، غير أن ابتسامته الملكية القديمة كانت أشد إشراقا ،فقد كان أكثر رحمة في معاملة عبيده وإمائه. واقل ولعا في استعراض قطعاته العسكرية أمام نافذته الملكية .

لكن فقراء الشعب سطوا على مخازن الحبوب في ظلمة الكسوف حيث لم يكن في بيوتهم ما يكفي لسد أفواه أطفالهم في تلك السنة التي كان شتاؤها قاسيا بعواصفه الثلجية المميتة ، فأصدرت الأوامر الملكية للحرس الملكي بتصفية المتمردين . احترقت مخازن الحبوب وتصاعدت أعمدة النيران حتى عنان قرص الشمس المحتجب ولم يطلع النور مرة أخرى حتى كانت أخر حبات القمح محترقة في الأيدي والأفواه المتلئة بالدماء والذباب.

لم نستطع معرفة ما جرى بعد ذلك فقد انطفأت أضواء مخيلة المنقب التاريخي احمد بن ناصر نتيجة تعرضه لضربة جديدة من ضربات السلك المعدني الذي كان بيد احد ضباط الاستجواب الذين هم ضمن جهاز القمع الخاضع لإشراف ابن الرئيس بصورة مباشرة.

سلطت على وجه المنقب احمد بن ناصر أضواء كاشفة شديدة الإضاءة منعته من رؤية صاحب الصوت الأجش الذي صفعه وبصق في وجهه ثم قال له :اسمع يا حثالة. نحن من أرسلناك إلى نينوى وبابل مندوبا عن سيادة الرئيس لتقول الحقيقة وليس لتتخيل أوهاما وتكتب نصا بديلا عما كُتب في متون كتب التاريخ ..اسمع يا ابن العاهرة ..لقد كتب الكاهن الأعظم مار_عشتار في احد ألواح القدرالذي عثرت عليه بعثة التنقيب الألمانية في مدينة الحضر ما هذا نصه:

((لقد وقع اختيار الآلهة على ابن احد كبار العائلات المتنفذة المسمى (دمقي) ليكون بديلا عن الملك الآشوري اسرحدون . نفذت الآلهة عقابها فمات مع ملكته عوض الملك سيدي ، كل حاجاته نذير الشر والشؤم احترقت . لقد أدخلنا الهلع في نفوس البابليين ، لكننا بينا لهم أن مردوخ وجميع ألهتهم الآخرين هم الذين أرادوا بهذه الوسيلة أن يطيلوا حياة سيدي الملك وهكذا ستصان حياة سيدي الملك في حين أن فكر الشعب سيظل هادئا. ..كتبه ودققه مار–عشتار الكاهن الأعظم لعبد أي–زيدا كل من يأخذ أو يغير هذا الرقيم عسى ايا١ أن يأخذه بأمر من نابو كاتب كل شيء ،أن يمحو اسمه)).

سحب ضابط الاستجواب مقدمة فروة راس الأستاذ احمد بن ناصر المنقب العضو في جمعية الاثار العراقية ليقرب عينيه من ورقة احتوت كتابة باللغتين العربية والآشورية ،وقبل أن يوقع في الورقة شاهدا على صحة كامل ما احتوته ، توهجت الأضواء الكاشفة بقوة في عينيه فلم يستطع التميز بين وجه ضابط الاستجواب وبين وجه الكاهن الأعظم.

العلبة المعدنية

الطريق الاسفلتي الخشن ينحدر أمامنا نحو البيت، تسبقنا في طريق العودة علبة معدنية منبعجة نركلها بأقدامنا الصغيرة فتكركر على طول الدرب ، أيدينا في جيوب سراويلنا القصيرة ، وفم كل منا يصدر صفيراً غير منتظم يختلط بصوت الريح التي لا تكف عن مداعبة فروتي رأسينا كأم رؤوم، وفيما كانت عيناي العسليتان ترقبان رفيقي الشارد الذهن ، الطفولي القلب ، كان هو يرقب الفتاة الاثمة العينين ، الجالسة عند عتبة دارهم تحدق في وجوه أناس لاتعرفهم دون مبالاة بنا ! ركلت العلبة المعدنية الى الفضاء الممتد ، ولحقناها لاهثين ..... وجدت أبي يمتد بقامته الاسطورية عند باب البيت ، أمسك بي من تلابيب ملابسي وهزني بعنف قائلاً بهدوء غير منتظر :

ألم اقل لك اتركه ، لا تلعب معه بعد الان ! أترك هذا الصبي العابث ، أفهمت ؟ ها ! تركني أسقط أرضاً ومضى مبتعدا . غيرت ملابسي المدرسية ومضيت الى النهر حيث ألتقي برفيقي هناك . دوى صوت أبي خلفي مهددا :

إلى أين ؟!

جلست عند حافة النهر، قلت له أن بعد خلعت ملابسي مستعداً للغطس في النهر:

هل ستروي قصتك من بدايتها ؟ هل تستطيع تذكر أحلام طفولتنا البائسة وتصنع منها قصة ما ؟

وكيف لي أن اعرف ؟

إذنْ حاول جعل تسلسل الأحداث يبدو منطقياً قدر الامكان .

سيكون هذا مؤلماً فإخضاع ذاكرتنا لأي نظام مفتعل سيدخلنا في معركة ساخنة مع الذات .

أعرف ، حاول.

او ربما سيدخلنا في معركة ساخنة ضد الذات .

لبثنا صامتين فترة طويلة لكني قلت له بفرح طفولي :

–هل تستطيع ان تغطس في النهر ؟أروِ قصتك وكأنك تغطس غطسة طويلة تحت الماء.

لا تخشَ شيئاً. فقط استنشق ما تستطيع من الهواء !

استنشقَ نفساً طويلاً من الهواء ، حبسهُ في صدره ثم ابتدأ رواية قصته قائلاً : شاهدتها هذا اليوم تمشط شعرها الكستنائي المتماوج حتى الركبتين امام مرآة الصخور ، قدماها الصغيرتان البيضاوان بعريهما الساذج ترتجفان من رذاذ القطرات المتقافزة الى صخرتها الغافية تحت الشلال النابع من عين الثور الحمراء ،حيث لا تعلم هي بالرمح الوثني المنغرس فيها. صرخت بهم : لا تحركوه ، اتركوه حيث هو حتى تبح أصوات الجمهور المتحمس بقبعاته المكسيكية ووجوهه المرقطة بالأسود والأبيض والرمادي،كوجوه السحالي ، يحيون بألسنتهم المتشنجة من في وسط حلبة الموت بشتائم بدائية . الحماس لن يستفزني ! لا طبولهم الجوف ولا ناي الثعبان العجوز ، لن أجازف بأي كلمة ، قصيدتي سأكتبها بتمهل عليل ناحتاً التقعرات والتحدبات بإزميل عاج مكتشفاً الايقاع السحري لأحجاري المقدسة وأعقده لصغيرتي الآثمة العينين إكليلَ غار ، قصيدةً مغبرة ، إنها من صخرة ولحاء حقيقيين :

أنظري ، إليَّ جيداً ، لاتخافي . خاطبتها ملوحاً بقميصي الأبيض الذي خلعته: (اني ذئب البحار ، صائد الاقمار ، عراف أسوار مدنٍ متهدمة يحاصرها التتار ، لكنها ارتعبت ساترةً عريها ، توارت خلف الاشجار!) .

قاطعته باستفزاز :

انت تحلم كثيراً .

كلا صدقني ، أنا شخص فاشل جداً ، وضد توقعك الحلم يتطلب أشخاصاً أقوياء لا يفترون أبدا ،لكن حين تمد يدك نحوي لن تستطيع الامساك سوى بظل نائم في عتمة الكون ! ألم أقلْ لك ! انك تشبهني كثيراً فأنت من بقايا النسل المنقرض الخارج من محنة حروب بعد الظهيرة، شاهدنا بعيوننا الوحلية التي بلا رموش بلاداً تدخل حروباً ، بلاداً تخرج من بوابة المستحيل الصامته ، أتذكر ؟.. تذكّرْ .

لا أتذكر سوى اننا لسنا عمالقة ولكننا أسرى في جزيرة اقزام !

اكمل قصته بحزن وقلق ، قال بشحوب :

أتعبني حصار شعرها الكستنائي في زوايا ذاكرتي المهجورة ، سلطات خارقة لعين خضراء ، ماكرة ، شريرة تمارس قوتها بخيلاء على مؤخرة عنقي ، حيث لا يتم التوقف عن هدم تمثال خيال لغةٍ تقود الشاعر المريض، خالقة اوهاماً وشعوذات تنبعث من روائح البخور وهمهمات رُقى حافظة لروحه من الضياع، تحبني او لاتحبني تلك هي المسألة الازلية، هل من تراجع او فرار ؟ نظرة تردد أو خوف واحدة كفيلة بأن توقض كل الاشباح الباردة ، كل مخلوقات الأيدي النحاسية وعيون الكبريت النتنة ! أنا من عليه أن يقرر بين إكمال درب الرحلة وبين الانتحار بالغربة ووداعها بسطور أخيرة لقصيدة لم تولد بعد ، ستلوكها بعد رحيلي الافواه الببغاوية بكثير من اللامبالاة ، ستستمع هي لكلمات تريد أن تقول:

– ((ليتصلب الحجر كما ولد ، عيناي رأتاكِ اول مرة قبل نطق لساني بالكلمة الاولى ، ولد متناثراً كشظايا صخرة ، ليتصلبْ قلبي كما ولد ! ...)) .

لكن المفاجأة حلت حينما قاطعتْ إنشادي، وذهبت لتُري الجيران منديلها الملوث بالبلغم وسيل لعاب فمها الممتزج بكلماتها الشاكية ، تخبرهم عن قسمتها وحظها في الدنيا ، عن قصة المجنون الذي أجاعها وفئرانها الستة، محاولة اسكات تصايحهم أمام نساء ورجال يتهامسون باندهاش صاحت بأعلى صوتها : إنه يتبعني كل يوم منذ الصباح حتى المساء من غرفة الى أخرى ساحباً خلفه رداءه المتقاطر الاكمام بالازرق ،بوجهه المسود ويديه المتشنجتين ، يتلوى أمامي بحركات مشعوذ او مهرج ، مدعياً قراءة قصيدة.

توسّلَ إليّ طيلة ثلاثة وعشرين سنة ماضية كي فهم بحب عميق ودموع مبتهلة كل تفصيلة وانعطافة فيها ليقترب اكثر من بيت أبي الغارق في غيوم البحر ، ليطلب يدي منه ويتزوجني في موكب مخلوقات بحرية متسامية ! أكملتْ بأسى: كنت أحاول معاندته بابتسامات ساخرة و بكائيات حارة يرقص هو عندها مصفقاً بجناحيْ وطواط شيطاني تحت السقف الرطب لغرفته التي يعيش فيها مستوحداً مغمضاً عينيه منذ سنين !

غرقتْ في بكائها ولم تعد تتكلم، أحاطوني بوجوههم المكعبة ذوات الشق البنفسجي المتحرك بضوضاء مشتتة أحاول تجميعها . ياللمأساة والدهشة ، ياللفرحة

البشرية!... أخبروني أني زوجها ، تمعنت في وجهها طويلاً. ليس غريباً عليّ ، لكن ما أهمية كل ذلك الان؟ هكذا بدأت مرافعتي للدفاع عن شخص مشنوق : أيتها السيدات و أيها السادة هل تصدقون أنَّ مثل هذا حدث وما زال يحدث ؟ أنا نفسي لا يمكن أن اكتب قصة بهذه البساطة المهينة ، بهذا الثقل والسذاجة لأخلاق اجتماعية مهترئة ، كيف يمكن أن تُروى مثل هذه القصص دون أساليب حداثة بالشكل والمضمون ، هل يستطيع أحدكم إخباري ؟

لم أكن أتوقع أن تكون نهاية قصته بهذا الشكل ، قلت له باندهاش :

هل أكملت قصتك ؟ أم أنك أضعتها في تفحص أدوات صنعها ؟!

من يعلم ؟ أصبحت مسناً ، لم أتعلم من حياتي سوى الاخطاء لكن ما أرجوه الان هو إني لم أكن مسيئاً كبيراً بحق الحياة بمحاولة ادراك ما لايدرك ،ماذا يمكنني أن اقول سوى أن طريق العودة للبيت يبدو الآن الاكثر جمالاً وألماً !

ومضى في طريقه ،ومضيت عائداً للبيت حيث وجدت أبي بجسده الضخم وهو يحدق فيَّ بغضب .

ألا تفهم ما قيل لك ؟ لم تعد صغيراً ، يداك متسختان ، أنظر الى شكلك كم يبدو غبياً ، إنها آخر مرة تلعب معه ! بعدها سأقتلك ، ها ، تفهم ؟ أجبْ ! هل خرست ؟!

تركني أخرج بدون قميصي المتمزق بين يديه الغاضبتين.

هربت من البيت ، واضعاً يدي في جيب سروالي ، مع رفيقي ، والطريق يمتد أمامنا من أوله صاعداً نحو الجلجلة ، حيث تجلس في بدايته الفتاة البريئة العينين ،لا تستطيع اجتياز عتبة بابه نحو دوامتنا ، حيث العلبة المعدنية المنبعجة تكركر ، تقعقع عند كل ضربة من أقدامنا الواهنة ، نشارك آهاتها بصفير من فمينا الملمومين بشحوب حزن طفولي ، فيما استمرت الريح بمداعبة فروتي رأسي عجوزين قد جاوزا الخمسين بقليل ، يهرب أحدهما من زوجته وأطفاله الستة ، ويهرب الآخر من سلطة أبيه ..،الغاضبة.....ركل نحوي العلبة المعدنية برجله الواهنة وركضنا وراءها....

.....

٢٠٠٠/١٩٩٥

عيناها والسيف

((– غداً في الصباح أخرج إليهم .. ولن ألقي السلام على أحد.

لقد احتاج الراغب بن سعيد، آخر رجال عائلة الوراقين العريقة ، سبعة وعشرين عاماً كاملة من الانحناء أمام سلاطين المماليك ليصل إلى هذه النتيجة المريرة والمدمرة. عازماً على إنهاء لعبة التاريخ ومهزلته المهينة ، جلس أمام موقد النار غارقاً في صمت مهيب . وحين حدقت في عينيه شقيقته العانس التي جاوزت الخمسين بعامين ، كانت الدموع قد تلبدت في عينيه لكن لم تهطل منهما أى قطرة بل استحالت إلى زجاج مهشم يعكس بعضه أطياف بعض فتصطخب في غور عينيه ملايين النظرات الغامضة، فعلمت شقيقته أن داء الأجداد قد عاوده فنهضت لتبخرّ البيت وتقرأ الادعية والتعاويذ لطرد الجن والشياطين)) ..

لقد كانت هذه الكلمات تلاحقني هذا الصباح وأنا في طريقي إلى الكلية حيث أخذ الطريق يتمدد أمام ناظري . همست لنفسي، أي قصة لعينة هذه التي تلاحقني في اليقظة والمنام ؟لقد بدت لي الكلمات مرادفة للدنيا وللمرأة فهي تغري الرجل بأن يقترب، يتعاطاها ليستمتع بها، تستغرق روحه ، تستعبده ، تأمره وتنهاه ثم تقتله إذا تمرد! تباً، هذه أفكار الراغب بن سعيد، لا أفكاري. الراغب بن سعيد مات في القرن السابع الهجري وأنا الآن في القرن الخامس عشر الهجري، أي غباء أن نتشابه في الأفكار ونحن نختلف في مرحلة حياة كل منا ؟

الوجوه تقابلني في الكلية بلا اهتمام كبير . الطلاب والطالبات يمضون إلى محاضراتهم، كنت أمشي على مهل مندهشاً من صفاء ذهني بالرغم من آثار السهر الواضحة على قسمات وجهي . حياني صديقي (ش) فرددت عليه التحية بهدوء، مشى إلى جانبي ، كان صديقي الوحيد طيلة أربع سنوات . ولما وصلنا إلى قاعة المحاضرة همس في أذني:

القوم يأتمرون بك ، فلا تدخل إني لك من الناصحين !

حدقت في وجهه ، لقد كان وجهه وجه الراغب بن سعيد نفسه ! لحيته الخفيفة، ورموش عينيه، شفتاه العريضتان، شعره الغزير تحت العمامة، جلست أحدق فيه طيلة فترة المحاضرة، وحينما انتهت قلت له " من أنت ؟ " ابتسم لي باستغراب وخرج !

بقيت جالساً وحدي في القاعة أكتب في قصاصة صغيرة أمامي ...

((أخرج الراغب بن سعيد سيف جده الاكبر، مسح التراب عنه . كان محفوراً عليه بخط كوفي قديم (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) وتذكر أن عائلة الوراقين لم تستعمل هذا السيف إلا مرة واحدة حينما جاهد به الجد الأكبر قبل ان ينقط القرآن ، أما بعد ذلك فقد لطخ الحبر تاريخ العائلة العريقة ، فملأ رجالها القراطيس وأشاعوا العلم ونشروا المعرفة فقصدتهم الركبان من كل الأمصار))...

توقفت عن الكتابة حينما بدأت المحاضرة الثانية، استرسل الأستاذ في محاضرته، وكنت جاهداً أحاول أن أركز شتات فكرى على ما يقول. أخذ الأستاذ بطرح أسئلته على الطلاب ، ذارعاً القاعة جيئة وذهاباً، كانت نظراته تطير فوق رؤوس الطلاب لتستقر على صديقي (ش) الذي كان يجلس الى جانبي. كان (ش) يتباهى أمامي دائماً أن الأساتذة لا يوجهون له أي سؤال محرج لأنه يمارس بعيونه تأثيراً سحرياً عليهم يجعله في مأمن من هجمات أسئلتهم اللامتوقعة . حدق الاستاذ فيه بشدة والتمعت عيناه بذهول كعيني قواد جنود المماليك ، لكن صديقي العجيب نجح هذه المرة أيضاً في حرف مسار نظرة الاستاذ فوقعت عليّ. سألني فجأة ((من كتب أول رواية في تاريخ الأدب العربي ؟)) أجبته دون تردد:

– ((الراغب بن سعيد في القرن السابع الهجري))

ضحك جميع الطلاب والطالبات، لكن الاستاذ سألني ساخراً :

– ((ومن هذا الراغب بن سعيد، ولماذا لم نسمع بمؤلفاته ؟!))

تجمدت دماء أفكاري،الحق أن الراغب بن سعيد لم يخبرني عن ذلك في الليلة الماضية ، استنجدت نظراتي بـ(ش) فوجدته يحدق بلا اكتراث إلى سقف القاعة وكأنه يعيش في عالم آخر !! فأصابني الخرس، انتهت المحاضرة فخرج الجميع، لكن صوتاً رقيقاً فاجأني، كانت زميلتي ذات العينين الخضراوين تقف أمامي وهي تبتسم بعذوبة :

– ما بك؟

– لا شيء.

– هل ما زلت تعيش في الأحلام ؟

– وما العيب في ذلك ؟

– العيب في أنك سترسب هذه السنة كما رسبت من قبل وقد تفصل من الكلية !

– صحيح ، ولكن الحق أن الخطأ الحقيقي هو في الكلية لأنها لا تستطيع ولا تريد الاستفادة من موهبة أشخاص مثلي !

– أنت شخص مغرور، هل تعتقد أنك الوحيد الذي يعرف الكتابة ؟!

– لا، أنا أعرف أن التعليم أصبح مجانياً بفضل كفاح أسرة الراغب بن سعيد ، ومنذ ذلك الوقت اصبح الناس جميعاً يكتبون، البلداء والحكماء، السفاحون والحكام ، من يملك عيناً واحدة ومن يملك ثلاثة عيون ، فتدهورت أحوال الكتبة وانقرضت أسرة الراغب بن سعيد العريقة .

– أنا لا يهمني هذا الراغب بن سعيد فكل ما يهمني هو أنت !

– أنا ... ولماذا ؟!

– ... لماذا .. هم..، لا أدري لماذا ..

احسست بالحمى، يا إلهي ، بهذه الصراحة والبساطة أسمع ما كنت أحلم به منذ أربع سنوات!

ابتسمت عيناها الخضراوان وتراقصت فيهما أربعة أزواج من الطيور صادحة:

– ((ما بك؟ .. ألا تصدقني ؟.. أحس أننا متفاهمان أكثر من ...)) ،

وفي هذه اللحظة دخل صديقي (ش) فاختفت صورة الفتاة من أمامي .اقترب (ش) مني كثيراً ودون ان يفتح فمه سمعت صوته يقول:

((قبل أن يخرج الراغب بن سعيد من بيته صباحاً اغتاله جواسيس المماليك فاختلط دمه بما أريق من محابر أجداده العظام فتلوثت وتلفت كل مخطوطاته وبعثرتها الريح في الدروب ...

عظم الله لك الأجر لقد مات الراغب بن سعيد.إنا لله وإنا أليه راجعون، ونحن ماضون الآن لدفنه)) .

ارتعش جسمي كله ، أردت أن أصرخ لكني فقدت صوتي ،أردت أن أحضن (ش) وانتحب لكنه اختفى فجأة من أمامي وتلاشت صورته ... نظرت أمامي لم أجد سوى قدمي اليمنى تلاحق اليسرى ، لقد انتهى الممر الطويل ودخلت للكلية .يا إلهي لقد كان طريقاً اختصرت فيه حياة وممات انسان مجهول حاصرني طيلة الأيام الماضية ، سدَّ عليَّ منافذ حياتي وأحلامي . لقد حبست فيه مخاوفي، طموحاتي، غضبي، اتهامي لهذا العالم ،لآليته، للأباليته، وغطرسته، الأساتذة، الطلاب والطالبات ،العلاقات العاطفية ،المقاعد والقاعات، الدروس والكلمات الجوفاء. لقد انتهت لعبة الكلمات حين وصلت إلى باب المحاضرة الأولى، كان الجميع منشغلين، صديقي (ش) كان يحدث ذات العينين الخضراوين ، وحين دخلت أطلقا ضحكة طويلة أقشعر لها جسدي، فدخلت ولم ألق السلام على أحد ...

.....

اذار \١٩٩٨

مُحنّاة اليدين

(١)

جلست فاطمة عند البئر المهجورة بعد انتهاء الحرب الأخيرة للعشيرة ، تخط على التراب بغصن متيبس أشكالاً وحروفاً وطلاسم . كانت الخطوط المبهمة تتخذ شكل خيول ، سيوف ، نيران ، ومتاريس ، تتعالى غبرة التراب ، صيحات انتقام ، استنجاد ، وعواصف مسودة . كانت أحداث ليلة أمس الكابوسية تتشكل في ذاكرتها كأحلام مشوشة التفاصيل ، تاريخ شعب كامل اخُتصر في ليلة واحدة ، في كلمة واحدة نطقها ذلك المخلوق السماوي الذي جاء إلى شيخ العشيرة في صباح يوم شتائي ممطر ، كان وجهاء العشيرة يتناولون فناجين القهوة محيطين بالموقد الذي كان الشيخ يحرك جمراته المحمرة بعصا خيزران طويلة .

حدق الجميع بالمخلوق المبتل العاري الصدر ، انتابته موجة من سعال شديدة ، سقط أرضاً اصيب بالحمى سبعة أيام ، استفاق في اليوم الثامن وعلى محياه ابتسامة غامضة فُسّرتْ بأنها شكر وعرفان لكن العارفين بعلم الفراسة الذين أبدوا شكوكهم وارتيابهم بالغريب الذي استمال قلوب عذارى العشيرة بابتسامته الطفولية وصمته المحبب فلقبنه بالأخرس .

أصبح واحداً منهم ، يصحبونه عند ركوبهم البحر فيعودون بالصيد الوفير ، يتركونه يتجول في حقولهم فتؤتي الأرض أكلها مرتين ، لكن الرعاة كانوا الأكثر حظوة فسمنت أنعامهم و درّت اللبن. كان يشارك الجميع ،لكنه لم يكن يمتهن أي عمل محدد ، طوال النهار كان يتجول متأملاً ، صامتاً ، ويرحل في الليل نحو القمر والنجوم، لكن فاطمة وهي تضحك بصوتها الناعم متسامرة مع صويحباتها كانت تعيده نحو الأرض، فيصفر لونه ويبدأ بالهذيان حتى الفجر. أمسكه شيخ العشيرة وهو على حالته هذه، في إحدى ليالي الصيف المقمرة ، فما كان منه إلا أن طلب الزواج بابنة الشيخ المسماة فاطمة المحناة اليدين ،لأنها ولدت وآثار حناء حمراء مائلة للسواد في راحتي يديها الصغيرتين . قهقه الشيخ طويلاً وطلب مشورة أهل الحل والعقد فأشاروا عليه أن يشترط على الرجل الأخرس الغريب أن يطلبها امام جميع أبناء العشيرة بلسان عربي فصيح فأعجبته مكيدتهم الطريفة !

دخل الغريب وقد جلس الشيخ ووجهاء العشيرة ، ووقف الشبان حولهم ، وجلست النساء وراء الستائر ليستمعوا لأول خاطب لفاطمة ابنة الشيخ الوحيدة التي سيصبح زوجها شيخ العشيرة بعد أبيها الذي طعن في السن وليس له ابن يخلفه في زعامة العشيرة . تلكأت شفتا الغريب، وتمتم بكلمات غير مسموعة، سال لعاب من فمه، ثم انتفخت طاقتا انفه، حسب الجميع انه سوف ينخرط كعادته في الهذيان وربما في البكاء المر، لكنه فاجأ الجميع بأنشاد قصيدة طويلة جمع فيها البديع والاصيل من الألفاظ المنتقاة من كلام الفحول مجدداً في المجازات الشعرية ، فتغزل بجمال فاطمة وسحر عينيها السوداوين في ألف بيت من الغزل الرفيع فبهتت الجموع وصمتوا طويلاً . احمرّ وجه شيخ العشيرة، ولم يدر ما يقول ، لكن أحد الطامعين في الملك العقيم هجم على الغريب صارخاً :

–لقد انطقه الشيطان بكلام العرّافين، فمن أين لهذا الأخرس هذا القول الرصين؟

لم يهتم الغريب وحدق بالشيخ قائلاً: " هل تفي بعهدك لي يا شيخ وتزوجني أبنتك فاطمة ؟ " هز الشيخ رأسه وعاودته حكمة الشيوخ ودهاؤهم فخاطبه بثقة :

– نعم، ستصبح شيخآ لهذه العشيرة بعدي لكننا نحتاج إلى الشعراء أيضا، لذا عليك أولاً، أن تعلم الشعر لأبناء العشيرة، وستتزوج أبنتي حين تعلم أربعين شاباً قول الشعر بطلاقة وحكمة وجمال !

(٢)

((ياإلهي، كيف يمكن تعليم الشعر؟)) .. حدق فى النجوم البعيدة، سأل صديقه القمر الذي انتقلت اليه الإصابة بداء الخرس . الشعر هو إعادة تصنيع الأحلام، كيف أستطيع جعلهم يحلمون ؟ كل ما يتقنونه هو العمل، صيد الأسماك ، الزراعة ، الحدادة ، الرعي ، تزوج النساء ، قتال الأقران ، اللهو ، والمسامرة فى أوقات الفراغ ، أحلامهم مقيدة بأصفاد زمانهم ومكانهم ، ولدوا فوجدوا لغتهم دون أجنحة فسحبوها خلفهم في الحقول كثيران الحراثة ، ولدوا رجالا خشنين ، لم يشاهدوا طفولة اللغة !

تذكر طفولته ، كان أجداده سدنة عرش الكلام وأسياد اللغة ، توجوها فى تاريخهم ملكة دون منازع على كل الأحداث ، جعلوها شاهدة على صمتهم الأبدي! تذكر كيف داست خيول البرابرة أخوته ، سَبَتْ أمه وأخواته ، كيف غُرست رماح البرابرة فى عيون الآباء والأجداد، ماتوا جياعا عند الفجر لكلمة جديدة تفتح عيونهم ليكملوا في نهارهم الأحلام ،غير أن نهارهم لم يصبح ، وأصاب الوحيد المتبقي من نسلهم الخرس ففر وحيدا وهام في البرية كالحيوان ،حتى نطق باسمها السري في قلبه فشفي من الدأء اللعين !

واعدهم فى البرية فأحتشد شبان العشيرة، ولم يأتهم فى اليوم الأول بل أرسل لهم رسولاً يقول لهم إذا أردتم تعلم الشعر فاحلقوا رؤوسكم وأتوني غدا. جاء نصفهم فى اليوم التالى، أتاهم رسوله وأخبرهم : إذا أردتم تعلم الشعر فاتركوا ثيابكم الجميلة وأتونى حفاة بأسمال بالية . تناقص عددهم فى اليوم التالي ، أتاهم رسوله فأخبرهم: صوموا عن الطعام والشراب والنساء وأقبلوا غداً!

فلم يأت سوى تسعة عشر شاباً ، حدق إليهم ؛ الدم يسيل من أقدامهم من وخز العاقول ،ووجوههم مسودة من لهيب الشمس والجوع قال لهم اذا أردتم تعلم الشعر فصوموا عن الكلام سبعة أيام ! في كل يوم كان أحدهم ينطق برغباته فيبعد و يعود أدراجه إلى العشيرة ، فى اليوم الثامن كان أمامه أثنا عشر شاباً حدق إليهم طويلاً وقال لهم:

– أنتم الآن شعراء ، لقد قهرتم شهواتكم ، وصمدت أجسادكم و ذاكرتكم ، تكاملت صور أحلامكم ، ولا يلزمكم سوى كلمة واحدة تستثير كامن جذور الشعر الرابضة فيكم منذ الآف السنين ، تستثير أحزان الآف الأجيال من الشعراء المجهولين والشعراء العظام المخلدين .

مدوا أعناقهم وقالوا:

–علمنا تلك الكلمة يا معلم !

صمت طويلاً وقال :أعلم إني خسرت الرهان، فأربعون شاعرا لا يولدون في أمة الا وجُنّتْ ! هذا مسطور في كتب الشيوخ القديمة ، في ألواح البردي والطين ، لذا أنا لن أتزوج ابنة الشيخ الماكر ، لكني سأخبركم بأمر الكلمة . إنها لا تُعلَّم وانما تُحفر فى قلب الانسان ،

تشتد آواصر حروفها من آلام الإنسان ومن مسرات العرفان. أنا وجدت كلماتي السرية فأتبعتها وتناسلت منها آلاف الكلمات السحرية، إذا وجدتم كلماتكم فأتبعوها ولا تلتفتوا لأي شخص او فكرة أخرى! ليس لدي ما أخبركم به أكثر مما قلت. فهمته قلوبهم من الأعماق!

(٣)

تفرق الإثنا عشر تلميذا بين أفراد العشيرة ، قالوا أشعارا في وصف قلوب الناس ، أشجارهم وأبقارهم ووسائد أحلامهم ، جعلوهم مقيدين بأسرة أحلامهم الخوصية وبآرائك شجنهم وبكراسي جريد زهدهم ، لم تفارق البسمة شفاههم ،ولم يفارق الهم قلوبهم الصغيرة، تركوا أعمالهم فأصاب الأرض البوار، وخربت السدود، وضاعت الأنعام ،وتُركت الشباك فمزقتها الأمواج التي أصبحت أشد صخباً، وفضل الشبان إنشاد قصائد العشق لحبيباتهم الحسناوات وترك الزواج بهن خشية أن تفقد الكلمات سحرها ونشوتها! ولكن كلما اشتدت لغة الشعراء قوة اشتدت حرارة الشمس ايضا ، فأصابهم قحط وجدب شديدان وفشت الأوبئة وسقط الناس صرعى من الفقر والمرض وأشارعليهم ((شواف الفال)) بأن السبب مذكور في صحف الأجداد المدونة على ألواح البردي والطين بأن ما من أمة أصبح كلامها أجمل من عملها ، وأحلامها أكبر من عقولها ، إلا أصابها البلاء . فطلبوا الحل، فأشار عليهم بإسكات الشعراء الإثني عشر وكبيرهم الذي علمهم الشعر ،ومنعهم من ترديد كلماتهم إلى الأبد.

لم تجد وسائل الترغيب أو الترهيب معهم، بل ازدادوا إصرارا على قولهم الشعر وجعلوه أكثر تأثيراً، لكن الشيخ الذي بدأت تدركه الآلام ومواجع الشيخوخة وأخذ يحس بدنو الأجل، استدعى معلم الشعراء فأجلسه إلى جانبه. حدق اليه ، ارتجفتْ شفتاه لم يزد عن القول : ستهلك وتهلك فاطمة .. أسكتوا عن قول الشعر،وسأزوجك فاطمة بعد ثلاثة أيام من ذلك .. ماذا تقول يا بني!؟

نهض خارجا من عنده، وفي قلبه تصارعت الملائكة والشياطين ورغبات البشر المخلوقين من جسد وروح ، من نفس أُلهمت فجورها و أُلهمت تقواها...من أنا حتى أخيط فم الأطفال عن قول الشعر؟ وأنا نفسي حينما أترك الشعر لن أكون وقتها في عيني فاطمة مختلفاً عن جرذ يختبئ في جحور الصحراء. قد تطلب المرأة رجلاً و لا تطلب شاعراً، لكن رجلاً بلا عمل ليس برجل ، والشعر ليس لهو وعمل ، رجل يلهو خير من رجل بلا لهو ولا عمل ! ولكني لم اعتنق هذا اللهو الخالد إلا لكي أحظى بفاطمة، فإذا خسرتها، فما فائدة كلماتي الجميلة ! يا الهي دوامة كبيرة من الأفكار المتناقضة أسقط في هاويتها وأنا أبحر في عينيها السوداوين اللتين واجهتني بهما أول مرة.

في صبيحة اليوم التالي قرب إحدى الآبار التي جفت، لم تنطق فاطمة بأي كلمة ! هل هي خرساء أم أنا ؟ الحق أني لم أسمع صوتها أبداً، الحق أن جميع الناس أصابهم داء الخرس إلا هي، وحين يهذي اللسان بما لا يضمره القلب ، حينها تنقطع صله الفؤاد باللغة، ويغدو الإنسان معزولاً عن العالم ويصيبه الخرس إلى الأبد. حين اقتربت فاطمه مني، رفعت خمارها الأسود للمرة الاولى ،رأيت بشرتها السمراء، فمها الصغير، أنفها الدقيق ، لكن عينيها ظلتا تأسران عيني وقلبي ، اقتربت مني اكثر ، سمعت كل شيء بوضوح ، قالت عيونها بعذاب : اريدك .

(٤)

في المساء أجتمع التلاميذ حول معلمهم ، كانوا يتناولون عشاءهم الأخير، كان يطعم أفواههم النهمة السويق بيده ، كانت عيونهم تفضح معرفتهم خبر الاتفاق الذي تم بينه وبين الشيخ ، سمعوا صوته مرتجفاً عند انتهائهم من الطعام وهو يردد أنشودة (شكر النعمة) ، التي تتكون من ثلاثة عشر بيتاً ، مطلعها لمعلمهم ، ولكل تلميذ منهم صدر وعجز تكون قافيته تاء مربوطة .صمتوا جميعهم ، أمرهم بإخفات ضوء القناديل ، قال لهم :

سنصوم عن قول الشعر ثلاث ليال وثلاثة أيام حتى نجدد روءانا ، ونفرغ كؤوسنا من كوابيسنا الماضية ، ونملؤها أحلاماً نقية ، قوية وجديدة .

هتفوا فرحين ، ورددوا أنشودة (كلمتنا التي في القلوب) ، لكن عيونهم اتفقت أن لا يستسلموا إلى أحد وأن لا يتبعوا إلا كلمتهم التي في القلب ، هكذا علمهم معلمهم! ويجب ان يصونوا ذكرى روح معلمهم !

في ليلة الزفاف ، كانت العشيرة مبتهجة بهطول الأمطار بعد أن كشف الناس عن غطاء أحلامهم الربيعية . أوقد أبناء العشيرة القدور ونحروا الذبائح وعلتْ أصوات النساء بأغاني الصيد والحصاد ومُنعت اناشيد الشعراء . كانت العشيرة كمريض يتماثل للشفاء، لكنه يحاذر أنتكاسة مفاجئة قد تودي بحياته ، كان الشيخ العجوز يرقب الأفق المظلم خلف نيران حفلة الزواج ؛يحس بثقل السكوت خلف هذا الصخب ، يحس بآلاف الفرسان يعبرون الشط من الضفة الاخرى ، لكن عينه الاخرى كانت تسارق النظر إلى فاطمة التي كانت عيناها تشعان ببهجة سحرية غامضة .

كان العريس وسط تلاميذه الاثني عشر الصامتين الذين غسلوا رأسه وأقدامه بالطيب وألبسوه تاجاً صنع من أسنان كواسج البحر المفترسة . حين أراد المعلم الدخول على عروسه ، وقف أكبر تلامذته أمام دار العروس وألقى بصوت صاخب قصيدة من ثلاثة وعشرين بيتاً بعمر فاطمة المحناة اليدين ، فتحدث عن فتن وملاحم آخر الزمان، وعن الدجال الذي يغري الناس بعودتهم للجاهلية ، والصراع من أجل الدنيا التي شبهها بغواية المرأة وفتنتها الداعية لانحراف قلوب الرجال عن الحق . التهب الجمهور وأخذ بعضهم يموج في بعض ، تصارعوا، تقاتلوا ، لقد خان معلمهم الاتفاق ، صرخ بعضهم : الشعراء على حق يجب اتباعهم ، الشيخ المراوغ هو المسؤول عن البلاد . وطئوا صدر الشيخ المنخور، صلب التلاميذ معلمهم على جذع نخلة قرب البئر ،قالوا إن الرجل مقدس لا تمسوه ، دعونا نطهره قبل أن يتلوث بالدنيا !

هجم من الضفة الأخرى من النهر الأعداء الأزليون للعشيرة ، فرسان مقنعون بالحديد..قتلوا الرجال والنساء والأطفال ، مزقوا الشاعر المصلوب بسهامهم المسمومة ، هرب

أبناء العشيرة محتمين بالشعاب والتلال المجاورة ، ارتفعت النيران في حقول الذرة . سقطت من فم المعلم قطرة عملاقة غمرت البحر و السهل !

(٥)

سفح دم الشعراء على الأرض، قال لهم (شواف الفأل) إن الأرض التي تشرب دم الشاعر الملعون يعقم رحمها فلا تنبت زرعاً ولا تخرج ماء، فعليكم الرحيل ! لكن فاطمة المحناة اليدين أبت ترك أرض الأجداد والآباء، جلست قرب البئر المهجورة غير مبالية بحرارة الشمس التي بدأت تعبث بجسد الشاعر المنخور بالسهام المسمومة فتفشت بالجو رائحة تفسخ خانقة . سوّتْ فاطمة خمارها ولم يبد من وجهها سوى عينيها السوداوين اللتين حدقتا في الأفق فشاهدتا قوماً يرحلون حاملين الشواطئ التي تخصهم ، ساحبين خلف ظهورهم صحراءهم الصغيرة، وسجادة غابة النخيل ، ململمين النجوم من على حبل الغسيل ، يدخلون الدجاج والبط إلى حظيرة عربتهم ، يتجهون جنوباً مع الحزن الذي يرتسم في عيونهم النورسية الصفر. لطخت فاطمة يديها بالدم الأحمر المائل إلى السواد فأصبحت الفتاة الوحيدة التي حُنيت يداها عند الولادة وعند الممات ؛ صرخت بالشاعر المصلوب :

_ألحق بهم قبل أن يدمروا جغرافية المتاهة ، إنهم يوغلون في نحيب تاريخهم ، غارسين سيوفهم في صدورالجياع ، خيولهم ستطأ بطون الحوامل ، سيلاحقون نسل أعدائهم في عالم اللحود، سينبشون القبور ، يبولون في المقابر المقدسة ، انهم يستنجدون بقواهم الخفية بالطلاسم السحرية ، بأعداد حروف الجمل لأسماء حبيباتهم البدويات ، برماح مماليكهم الأحباش ، بسهام الجن في الخرائب والمفازات ، إنهم يرحلون حاملين بقايا عظام موتاهم في أسمال أكفانهم المصفرة ، يحملونها على تقويسات ظهورهم ويوغلون في تيه مسراتهم المقفرة ، مرددين صدى الكلمة التي امست مصيرهم وزاد رحلتهم ، يتقاسمون قشور البصل المجفف وماء الابار المر ، لكنهم إذ يعطشون ينحرون أعز إبلهم ويبقرون بطونها، يطعمون أطفالهم جذور أعشاب البوادي، يغلونها مع التعاويذ وحبيبات الرمل ، فضروع أبقارهم وأثداء نسائهم أمست تدر اللبن ممزوجاً بالدم الأسود وسموم الكلام ...

همستْ في أذن الشاعر المصلوب : هل كنت تسخر منهم ، بتغيير وجوه قانعة ، تخفي يداً وتخرج أخرى من ثقب آخر؟! لكنهم كانوا ينسلون واحداً اثر واحد، دون ان يحدثوا صوتاً كانوا ينقلون جدران لغتهم إلى زمن آخر، كانوا ينقلون ساعات عذابهم وانتظارهم إلى جدران أخرى، ينضدون ويرصفون الكلمات جنباً إلى جنب ، كانوا يبنون حول أرواحهم المرتجفة أسوارا جديدة تقيهم شر سهام البرابرة ، فلقد استوطنوا المدن الشريرة إلى الأبد...

أصيب قلب فاطمة بسهم الخرس المسموم ، التهب جوفها، هامتْ على وجهها في البرية ملاحقة وجه الشاعر المبعثر في الفلاة كسرابٍ ساخر. صرختْ بصوت خفي:

-لماذا قلت الكلمة؟! مالذي سيحل بنا الآن وبهذه الأرض ؟ هل يبقى من يدّعي أنه يعرف حقيقة إنسان ما؟ هل يدفن أي منا الآخر، بعد أن ينهش الإنسان لحم أخيه ويسكب دمه بالطرقات !؟، حاول ان تغير مواقع الحروف ، تلاعب بنقاط الحروف، لفق الأكاذيب، أطلقْ صرخاتٍ وحشية ، لماذا قلت تلك الكلمة؟

لكنها سقطتْ صامتة، فأصيبت الأرض بداء الخرس إلى الأبد! !

.....

شباط/١٩٩٧

باب الهوى

جلسنا مع حلقة العشاق نستمع إلى قصة عاشقين دخلا يوماً من باب الهوى. قيل أن العاشقة دُفنت تحت السور وأن حبيبها دفنته رمال الصحراء. أشاع عامة الشعب أن اسمها زاد القلوب وأن اسمه حسن ضوء الزمان ، وادّعى شطر من الرواة أنها إحدى شقيقات زليخا اللائي قطعن أيديهن ، وذهب قسم من النسابة العرب أنها لُقى بنت معد بن عدنان العامرية غريمة ليلى العامرية ، وأكد شهود عيان أنها كانت تمتلك العديد من جوازات السفر بأسماء مختلفة لكي تستطيع الافلات من رقابة البوليس الدولي وموظفي الضرائب ، فيما توصل العديد من الدارسين لتاريخ مدينة الأبُلّة أن المؤرخين الأقدمين تعمدوا عدم ذكر اسمها خشية من بطش السلاطين والولاة العثمانيين . وعلى أي حال فالرواية التي نسمعها في هذه الليلة هي أغرب تلك الروايات وأكثرها ألماً وعذوبة وقد وردت على لسان شاعر أعمى مجهول يسند ظهره المحني إلى جدار متداع يعتقد أنه بقايا لباب الهوى القديم الذي لم يكن يسمح لاي عاشقين الدخول والخروج منه إلا بعد استصدار فرمان يقضي بكونهما عاشقين مسجلين رسمياً في سجل ديوان الخراج والمكوس الميري ويحدد المكوس المفروضة عليهما . ولعل ما جلب الشهرة لهذا الشاعر المغمور هو ادعاؤه أنه نال شرف قراءة قصيدته فى حضرة العاشقين قبل أن يتم تصفيتهما على يد فصيل الاعدام السلطاني وسنكتشف بمرور الوقت ؛ بسبب جموح خياله ؛ أنه سيستبدل في نهاية قصته سبب قتلهما بحادثة أخرى لا علاقة لها بفصيل الاعدام المزعوم ! ولأن شاعرنا من الشعراء الذين يهيمون بابتداع الرموز فلقد اختار لهما اسمين كشفا عن قلبيهما المحزونيين ، فقد رمز لها باسم (حرية) واشتق لحبيبها اسماً من اسمها هو (حران الولهان) غير ان شاعرنا كان يخلط حوادث حكايات العشاق مع بعضها متنقلاً بين الأزمان بفوضى تستثير شفقة واستغراب الجالسين ... كل يوم يحكى نفس الحكاية إلا أنها كانت تنتهى بنهاية أخرى وبزمن اخر ... لم يهتم بما كان يعترض به الحضور من عدم منطقية حكايته المرصعة بكلمات السجع الساخر مرة وبالكلمات الملغزة والخشنة والحسية مرة اخرى ... أحياناً يعمد الى الافكار المتفلسفة والتي لسوء حظه أصابت العاشقات بالضجر والنعاس . كان الجميع قد اعتاد حكايته المستمرة دون انقطاع . فلكل

عاشقين الحق في أن يتركا مكانيهما فى أي وقت من أوقات الحكاية ، فقد يستمعان لنهاية حكاية وبداية حكاية أخرى وربما لخليط من حكايات شتى دون نهاية ، أو قد يختاران النهاية التي يهويانها فيتحدد مصيرهما ثم يعودان لضواحي المدينة حيث يفترقان قبل أن يلحظهما احد ! لكن ما كان يثير دهشتنا وخوفنا أنه كان يخلط بين حكايتنا و حكاية عاشقين يحملان نفس أسميهما ؛ عاشا في أزمان مضت ؛ أو انهما سيأتيان إلى هنا بعد سنين طويلة لسماع حكايتنا.

افتتح الراوي مجلسه الأول حين بثت أوتار ربابته شكواها بصوت نائح :

مطاردان في الأربعاء الحزينة ،

جلس العاشقان تحت الاسوار

منسكباً دمعهما الكحلي ،

صمت سؤال :

من وشى باسمينا للجلاد ،

ومن أطلق خلفنا كلاب النار ؟

* * * * * *

انبعثت دموع الحاضرين ولم يكظم حزن النساء النائحات ويهدئ صوت عويلهن سوى هدير صوت شاعرنا ؛ الـــراوي ؛ الجهوري والنقي كنقاء الصحراء الممتدة أمام الجالسين ، قال : يا سادة يا كرام .. لم يكفّ حران الولهان ابن السادة الأنجاب عن مبادلة الفتاة الواقفة أمام موقف السيارات ؛ النظرات الملتهبة والبسمات الخفية . كان جادا في مكاشفتها بإعجابه بها ؛ بروحها ودمها ولحمها وشحمها ؛ لكنه لم يجد الفرصة المناسبة لذلك ، من جهتها كانت تنظر اليه بارتياب لكنه كان يروق لها ، بهدوء رجولته وكبرياء نظرته التي ذكرتها بالفارس الذي أحبته قبل بضعة قرون والذي هاجر حاملاً سيفه على عاتقه ليخضع البدو الثائرين على سلطة الباب العالي . تمنيا لو أن كل السيارات الثي تأتي تكون ممتلئة بكاملها بالركاب ، كي تطول فترة انتظارهما . كان الركاب يمدون أعناقهم من

النوافذ للتفرج على جمال الفتى والفتاة المتأخرين عن دوامهما المدرسي .. لم يستطع أى طير ان يمر في السماء دون ان يختلس النظر إلى ما يدور من حوار بين روحي عاشقين في أول صباح من عمر حبهما .. لم يسمح لأي نملة أن ترفع رأسها وتشاهد تورد خديهما خشية أن تنصرف النمال عن اعمالها وتصاب مملكة النمل بداء البطالة الذى اصاب العاشقين ... وهكذا لم تمر ساعة من النهار حتى نقلت الريح خبر وجود عاشقين يرتكبان حماقة الحب دون إذن سيدي السلطان آغا متسلطن قطب زاده والي المدينة القديم – الجديد ابداً . فبعد إن فتحت إحدى جواريه شباك غرفه خلوته حيث كانت تقوم بالتدليك اليومي المعتاد لجسده المترهل أدخلت تلك الريح الواشية . ولم تكن تلك الجارية سوى واحدة من صويحبات حرية في الحي الشعبي القديم المؤلف من بيوت الشناشيل الآيلة للسقوط والتي هجر سكانها طوابقها العليا وانحشروا باكتظاظهم السكاني المفزع في الطوابق الأرضية، محاصرين بالقوارض والحشرات . كانت الفتاتان تتبادلان النصائح والأسرار النسائية دون حياء . ودون حياء كانت المدلكة تصل إلى الأماكن السرية في جسد الوالي المنهك الرجولة ، محاولة دغدغة حواسه عبر رواية النكات البذيئة وأسرار الصبايا .

رفع الوالي رقبته بتشنج ، كان مستلقيا على بطنه الضخم ، أغمض عينيه وأطلق آهةً خفيفة موجعة ، فقد آلمته الندبة ذات الجلد المتقرن في كتفه الأيمن وذلك حين ضغطت أصابع المدلكة بقوة عليها ..

– مولاي يلتقيان خلسة ويتبادلان الغرام ...

جحظت عينا الوالي ، أراد ان يمارس هواية إطلاق الشتائم البذيئة باللكنة التركية لكن يدها ضغطت على أسفل ظهره بقوة اكبر فأطلق حسرة كبيرة ..

– مولاي يتبادلان الانفاس المتلهفة والقبلات الشبقة ...

أخذ الوالي يحمحم ويخور كثور هائج ..

– يا ويلهم ... يا .. أين ؟

– مولاي في ظل شجرة السدر اليتيمة .

– يتيمة .. آي .. آه .. ضعي يدكِ .. تحت .. تحت .. أين تلك السدره اللعينة ؟

– نعم .. مولاي... هكذا ..إنها قرب الخربة عند مدخل وادى النساء

– أجلبي لنا قميصين من ثياب المرتدين واعرضيهما على كلابنا السلطانية وستشي رائحتهما بمكانهما .

* * * * * *

حين التأم المجلس في اليوم التالي ، كانت وجنات النساء قد اصفرت من القلق والجوع ، وازرقت شفاه الرجال من استنشاق أنفاس النارجيلة وعينا الراوي ذبلتا من الهم والأرق، فأحتضن ربابته وأطرق ساعة ..ناجت الربابة قلبه قائلة :

محدقاً في قافلة الشهداء ،

الشاعر قال:

يا قلبي // وطني المحروق في هذا الليل ،

متشظياً في خوف الطرقات ،

سمعت نحيب صوتك ،

سقوط قمرك وعيون وجهك ..

* * * * * *

ساد المجلس صمت ووجوم ، بدده الراوي بالقول : يا سادة يا كرام ... فما كان من صاحبنا حران إلا أن دس رسالة يشرح فيها لواعج قلبه المتيم في كتاب مدرسي ووضعه على مصطبة انتظار الباص ، فلما شاهدته أدركت ما قدر ورام ، فعذبته قليلاً بعد الاهتمام ثم أخذت الكتاب قبل أن تقفز بخفة وفرح لترتقي الباص .

في تلك الليلة القمراء، لم يعانق الوسن عيني الحران ؛ منتظراً الجواب بقلب مهتاج ؛ كان

يروح ويغدو بنفاد صبر ، متخبطاً في أوحال الزقاق الضيق المؤدي إلى قنطرة صغيرة

تفصله عن الباب الخلفي لسكن الحريم السلطاني . كان ماء النهير الصغير المتفرع من نهر الأبُلَّه يجرى بريبة وحذر خوف أن يوقظ القمر المتأرجح فوق سطح ماء .. اقترب حران من القنطرة حيث كان ضوء القنديل المعلق في وسطها قد تخافت بشدة، وما لبث أن انطفأ بعد أن نفد زيته .. الشباك لايزال مؤصداً .. بقيت عينا حران تراقبان النجوم الوردية الاشكال المحفورة بمهارة في خشب درفتي الشباك الذي كانت تحيط به أقواس هلالية ذات حواف مؤطرة بالفسيفساء والنمنمات المتعددة الألوان كانت تزين كل ابواب ونوافذ شناشيل الحرملك السلطاني ... تلصصت عيون حريات خاتون من بين شقوق درفتي الشباك ..لا احد يرقب المكان .. فتحت درفة النافذة قليلاً .. رأت ظل حبيبها يمتد من أول الزقاق محاولاً عبور القنطرة ..عانى الانكسار في ماء النهر ... شاحباً كان ظله في قرص القمر المتراقص في عينيها .. فرح قلبها .. كشفت ابتسامة ثغرها الخفية عن أسنانها اللؤلؤية .. حملت ريح الصبا عطر جسدها العبق إلى أنوف كائنات الليل الغافية .. انكشف أمرهما .. استيقظ الشر الكامن في جحوره .. تدافعت كل المخلوقات النتنة عبر جحورها الرطبة لتصل الى مخدع سيدي اغا متسلطن قطب زاده الذي كان مهموماً لعجزه عن مضاجعة جواريه الأرمنيات الثماني في ليلة واحدة وكالعادة لم يسمح لأحد بالمثول بين يديه ، فنفثت الالسن ما تحمله في آذان بطانة السلطان من الوزراء اللوطيين ومهرجي القصر المسوخين إلى قردة وثعابين ، الذين تدافعوا لأخبار حاجب السلطان المحتجب عن سواهم . أخبر الحاجب السلطان فأزداد همه وذلك لأن الجارية التي دلكته صباحاً كانت على الدوام أكثر دقة وسرعة من كل جيش جواسيسه في معرفة أسرار العشق والعشاق في المدينة ، اذ كانت تستخلص الأسرار اثناء قيامها بصبغ أظافر أقدام خواتين الحرملك في أوقات فراغها .

– مولاي الوالي أجمعت كل عيوننا أنّ ... أنّ قائداً من جيشكم المرابط خارج المدينة يقوم .. يقوم يا مولاي ب .. بمغازلة إحدى نساء حرمـ .. لكـ .. كم السلطاني يا مولاي.. إنهما .. يلتقيان قرب .. وادي النساء .. إنهما ..

– كفى .. لقد ضجرت من قصص الحب العفنة .. لننتهِ أولاً من مشكلة الجواري الأرمنيات الثماني .. عليّ بالخمر .. ياجواريّ الأرمنيات لتمسك كل واحدة منكن بخنجرين معقوفين وابدأن الرقص .. رقص وغناء .. لتبدأ الرقصة الأخيرة .. رقصة الطعن بالخناجر المسمومة .. والراقصة الوحيدة التي ستخرج من حلبة الرقص على قيد الحياة ستكون أميرتي المتوجة لهذه الليلة .. وبعد أن تساقطت العيون الخضر والسود، وقطعت الشفاه الكرزية، وتلطخت النهود العذرية بالدماء الحارة ، خرجت الجارية الأخيرة ملطخة بدبق الدم ورائحة الليمون..! أفرغ السلطان كل كؤوس الخمر والدم وصرخ منتشياً : ((صفقوا .. لها ..صفقوا..)) صفقت الحاشية طويلاً ، صفقوا حتى سقطوا من الأعياء... ساد الصمت .. تصاعدت في عيني السلطان شعلتا الدم ... همس لحاجبه الملثم دوماً :

((الآن .. أطلقوا عليهما الكلاب !)).

* * * * * *

في الليلة الثالثه كبرت حلقه العشاق والعاشقات الجالسين حول الشاعر الأعمى ، فأوغل في وحدة نفسه الشريدة في برد الليل ،.. أُضرمت النار لتدفئه الأجساد والأرواح المرتجفة .. أندسّ كل عاشقين تحت كسائهما الصوفي البالي .. اهتزت رؤوس العاشقات على أكتاف عشاقهن بحنان وأسى وهن يسمعن صوت الشاعر المبحوح مناغياً ربابته بأسى:

لكنني غضضت الطرف مختنقاً بالعبرات ،

وأوغلت وحيداً في التيه ،

بعصاي أفلق وجهه قمرين ،

واحد لرماد غابات الموتى ،

وآخر لزرقة نار المنفيين !

* * * * * *

يا سادة يا كرام .. في اليوم الثالث من عمر حبهما ، لم يبدد العاشقان أيامهما في الخوف من النفس ومن الآخرين ، أو في الترقب للوقت المناسب والاختبار الزائف للعواطف،

كما كان يفعل الرجال والنساء في أزمان الحرمان الغابرة ، بل أن الفتى المعتد بذاتـه ؛ حـران الولهان ؛ لم يكن يفكر طيلة أعوامه الواحدة والعشرين فيما إذا كانت هنالك أية قـوة بشـرية تستطيع منعه من تحقيق ما يريد ، والفتاة العذبـة ؛ حريـة ؛ ذات الثمانيـة عشـر ربيعـاً ؛ خرجا ممسكين بيدي بعضهما ومضيا نحو حديقة الحيوانات ليتفرجا علـى الحيوانـات الـتي جُلبت من خلف البحار ومن مجاهل القارات. وقفا طـويلاً امـام قفـص صـغير أجـرد الاُ غصـن شجرة متيبسة ومن حيوان (السعدان) ، حاز على اعجابهمـا بأناقـة هندامـه وطريقـة عيشـه وكيفية تنسيقه بين أوقات العمل و أوقات الفراغ التي كان يقضـيها بأرتيـاد مختلـف وسـائل الترفه العصرية المتوفرة في قفصه ! ثم وقفا متعجبين أمام القفص الذي يحتـوي بيـت حيـوان (الكسلان) ، فقد دهشا من عدم قدرته على فهم أبسط مشاكل عصره ، فهو لم يبد أدنى أهتمام بإمتاع الرجال والنساء الذين تركـوا أعمـالهم منـذ اكثـر مـن اسـبوعين ، وافترشـوا الحديقـة المقابلة لقفصه ،عازفين عن النوم خشية أن تفوتهم أي لحظه من لحظات الإثارة التي سيوفرها لهم هذا الحيوان . بيد أنه خيب آمالهم حين لم يجشم نفسه عناء التقاط قشور اللـب والجـوز التي رميت بالقرب من أقدامه . واستمر في تحديقته البليدة بالجمهور المحتشد أمامه والـتي لم تفارقه قط !

لكن أشد ماأثار دهشتهما هو القفص المحتوي على قصرِ حيـوان (السـلطان) . كـان جسده العاري مغطى بالشعر بأكمله ولم يبد منه سوى عينيه المرتابتين وحفـرة فمـه الشـرهة التي برز منها نابان مكسوران بينهما أسنان متفرقة منخورة . كان يختبئ في أغلـب الأوقـات في قصره خوفاً ممن يعتقدهم أبناء شعبه المحبوسـين خلـف القضـبان . فقـد اعتقـد دومـاً أن رؤوس وأيدي الجماهير المحتشدة أمام قفصه تحاول أن تنفذ من خلال الفتحات الضيقة بين القضبان لتهرب مـن سـجنها مهـددة حريتـه ورفاهيتـه ! بـذل كـل جهـده للمحافظـة علـى ممتلكاته وذلك بإصدار أصوات طويلة ؛ بهيمية وغامضة ؛ تبدو مضحكة في أول نغمتها ثم ما تلبث أن تتحول إلى نغمة يائسة كصوت غريق ينازع للتشبث بالحياة دون جدوى ! قال حران لحبيبته بصوت واثـق: ((أن هـذا الحيـوان الوحيـد هـو الوحيـد المتبقـي مـن بقايـا فصـيلته

المنقرضة منذ أكثر من مائة عام ، حيث أُبيدوا عبر مخاضات الأنتخاب الطبيعي وعمليات التطور والأرتقاء التي مر بها المجتمع الحيواني . عُرضَ امام الجمهور بهذا الشكل الساخر المصحوب بجوقات الموسيقى والبالونات الملونة التي حررتها أيدي الأطفال من قيودها لتطير بعدها في الفضاء لاشاعة روح التفاؤل والمواساة بين أفراد المجتمع من الشباب والشابات الذين في مثل أعمارنا لكي يكونوا قادة لمجتمع الغد ، كي نمحو من ذاكرتنا يا حبيبتي .. كل أزمنة التسلط والابادة الجماعية لمشاعر النساء والرجال الذين تم قُبرت اجمل أيامهم في المقبرة الموجودة على جانبي مدخل باب الهوى)) صفق قلب حرية لهذا الكلام الذي لم يكن مسموحاً أن يذكر في كتبها المدرسية.

طلبت حرية من حبيبها زيارة مقبرة العشاق في باب الهوى لوضع اكليل من الورود على قبورهم . ومع كل خطوة في طريقهما كانا يتذوقان طعم معجزة الحب ، مع كل ابتسامة وضحكة يتبادلها قلباهما ، لكنهما صادفا (شواف فال) يدّعي انه يستطيع قراءة طالع العشاق . كان الصبيان والصبيات يلهون بمشاكسته، فقد كان يبدو بثيابه المزركشة والمخططة باللونين البرتقالي والأخضر وطربوشه الأحمر وكأنه مهرج سيرك، انسل من الحلبة المكتظة بالجمهور الساخر إلى الطرقات لتسول الصدقات من العشاق المتنزهين في أوقات الغروب . طلبا منه قراءة طالعهما .. بسطا راحتي كفيهما ، لكنه حملق في وجهيهما باستياء ، لم تكن ملامح وجهه غريبة عليهما فأرتابا في أمره . ضرب (شواف الفال) مجموعة أعواد وعظام كانت أمامه فتداخلت مع بعضها في خطوط متقاطعة،ثم نثر فوقها قبضة من الرمل الأحمر أخرجه من صرة يحملها في حزامه المزركش ؛ أخذ يهر ويزبد ، وانتابته رعشات واهتزازات شبيهة بتلك التي تعترى المجذوبين . احمرت عيناه .. وأخيراً نطق بنبؤته بطريقة تشبه الفرمانات السلطانية المحتفلة .. ((الموت ولا العار .. النار ولا العار .. يا ستار .. ياستار .. امامكم قدر مكتوب والمكتوب ..)) ضحكا وأكملا بمرح :

((ما منه مهروب ..))

"ستفرق أيديكما أيدٍ قوية وجبارة وتترككما كعظام العشاق النخرة هذه .. ، التي استخرجتها من تربتهم المحرمة" ..

اعترتهما رعشة ، حدقا في وجهه ، .. كان وجه السلطان .. ، تركاه وهربا .. صوته المتوعد استمر بمطاردتهما ...

* * * * * *

سلك الشاعر ببطليْ حكايته نفس الطريق التي سلكناها حتى أوصلهما الى باب الهوى حيث كنا جالسين ننظر الى صورتنا في عينيه الخاليتين من سواد البؤبؤين. أدركنا أن الليلة هي ليلة حكايتنا وأن مصيرنا يتحدد بنهاية حكايته . ولم يكن لجو الألفة والمتعة الذي اشاعتها حكاياته أن يغير من الشعور بالوحشة والمأساة الكامنة في جوهر حكايتنا، فقد كان الخوف من انكشاف أمرنا لأقاربنا ولمجتمعنا يسيطر على تفكيرنا .. عيونهم المتلئة بالغضب والأيدي والعصي المتوعدة بضربنا حتى ازرقاق جلودنا وتقطع أطرافنا .. ماذا سيفعلون بنا ؟.. يجزون شعر رؤوسنا ؟.. يسجنوننا كلاً في سرداب داره ؟ يحرموننا الطعام .. يسمون جباهنا بكتابة تشي بعارنا ؟.. ماذا ستفعل عشائرنا الشريفة النسب والمحتدة الاعراق .. المرفرفة الرايات أبداً فوق الجماجم الذليلة لشهداء العشق ؟.. كنا خائفين من دفع ثمن الدخول من باب الهوى !

كنا منزوين تحت شجرة السدر القديمة التي تناثرت فوق أغصانها الضخمة اعشاش العشاق ... كل زوج منهم يحدق في الضباب المتصاعد جراء غموض ووحشة برد اول المساء ... اضواء مدينة الملاهي وحديقة الحيوانات تتخافت رويداً .. رويداً ... تلاشت بصورة تامة ... ساد جو اسطوري عاد بالجالسين لقرون خلت .. كان الشاعر الأعمى يخاطب ربابته القديمة :

من علمك كل هذا الحزن ؟

في اقرب وقت لا تنسي .

اجابته حبيبته // الربابة :

في اقرب وقت لا تنسَ من غدر بي ،

لا تنسَ دم العشاق المحرومين ،

وتوضأ بدمهم المسفوح ،

وصل لي !

* * * * * *

قال الشاعر الاعمى : بلغنا ان الحران ولهان امسك بجانبي وجه حريات خاتون بحنان ، حدق في عينيها السوداوين ، كانت طلائع الدم تترقق بعذاب ، ابتسم بعذوبة وألم ...

– ما بك ؟

– سوف تتركني وتذهب !

– أوامر السلطان ياحبيبتي .. فقد أمر ان نذهب الى اعماق الصحراء لاخماد ثورة البدو ...

– قلبي يحدثني أنك لن تعود ..

– سأعود بعد أن ننهي تمردهم .

– وإذا عدت .. هل بأمكاننا أن نعيش معاً الى الأبد ؟!

– ليتنا نعيش معاً الى الأبد.

– هل حبنا دون أمل ؟

– حين يسجنون حبنا في زنزانة أو يمنعونه من الحياة فانه سيكون مصدراً للحقيقة والألم. – اذاً ..نهرب ...

– نهرب .. اين !؟

– خارج هذه المدينة ... بعيداً عن عيون جلاديها .

– المدينة داخلنا والجلادون يعيشون تحت جلودنا ، لا تظني أن الأبُلة تختص بمكان وتحدها أسوار ، الابلة هي الزمن اذ يرحل بنا صوب المستقبل او الماضي . قد يرحل فينا الزمن فنجد انفسنا في إحدى دوراته وجهاً لوجه في لقاء آخر .. قد ..

– قد ! أ نستسلم لهذا الرهان الخاسر ؟ .. إذا عرفوا بأمري سيمزقونني ...

– لا .. لن يعرفوا .. سأرحل .. لكن سأعود.. انتظريني .. فقط ابقي على قيد الحياة...
وابتعد .. ابتعد ... بدأ صوت الشاعر بالخفوت ، أخذ يناجي نفسه .. ، جاء السلطان مع موكبه .. كنت معهم .. كنت أرى .. كلاب السلطان تحوم حولها .. تشم جسدها .. العاشقة تحاول أن تقف .. أقدامها شلها الخوف .. سقطت .. أحاطوا بها .. كانوا يحملون سيوفاً وقناديل كثيرة .. قال الوزراء المسنون : ((ارجموا الزانية حتى الموت)) .. قال الحرس السلطاني : ((اتركوها لنا لنعرفها معنى العار !)) .. تقدم السلطان منها احدث بعصاه ثقباً في احد اوردتها قائلاً : ((اتركوها تقطر دمها قطرة ..قطرة في فم شاعر قصرنا الذي لم يمدح جمال وفتوة شاربينا منذ سنين خلت ، لعل طعم الدم يحرك فيه شيطان الشعر)) .
سقط الشاعر زاعقاً بجنون يا سادة يا .. لقد امتلأ فمي .. وبلعومي ومعدتي .. وامعائي .. و مؤخرتي بدمها العبق .. تفجر من دمها المسفوح بركان الشعر .. شعر ودم ، كنت اصرخ بجنون كلما رأيت لوناً أحمر .. خاف الوزراء الحكماء علي من الجنون .. أمر السلطان بكيٍّ عينيٍّ بسيف محمي .. سُملت عيناي .. كنت الوحيد في المدينة الذي استطاع ان يرثي العاشقين بدموعه دون ان يتنبه جواسيس السلطان . التزمت باب الهوى الذي سمي بهذا الأسم بعد ما دفنوا عند مدخله اول شهداء العشق .. كان لدم العاشقة ولسحر هذا المكان القدرة على تجديد شباب جسدي كل عام ، إلا أن روحي كانت ماضية في الإرتكاس في خرف الشيخوخة . وهكذا تنقلت عبر الأزمان كشاعر مجنون يعتاش على هبات وهدايا العشاق .

* * * * * *

استمرالشاعر هاذياً بحكايات عشاق من أزمان شتى. كان شاعرنا الأعمى غائباً في إحدى نوبات إلهامه محتضناً ربابته التي أخذت تصدر ألحاناً من دون تدخله ، ارتفعت اصواتنا مع كل العشاق منشدين :

الصمت // الشعب الغارق في الأصفاد ،

صلى خلف الشاعر الأعمى ،

النائم وحيداً تحت السور ،

مخاطباً وجه حبيبته // الحرية ،

المحتجب خلف ستار النور ،

بقصيدة حب مطلعها :

قلت لها عودي !

* * * * * *

وعندما انتهينا من الإنشاد ، انتبهنا أن جميع العشاق والعاشقات كانوا قد رحلوا، ولم يبق سوى الشاعر الأعمى يقص حكايته الأخيرة لنا ، وحدنا . التفتنا .. كانت اضواء المدينة كلها قد زحفت نحونا .. رجال كثيرون التفوا حولنا ، كان بعضهم يرتدي الكوفية والعقال العربيين والآخرون كانوا ببدلات سهرة او بملابس عمل زرقاء وأخرى برتقالية قالوا :

((اننا عشيرة هذه الصبية الحسناء التي غرر بها ابنكم ومرغ شرف عشيرتنا في الوحل)) اجتمع من الجهة الأخرى رجال كثيرون لهم نفس ملابس ووجوه عشيرة الصبية ، لكنهم ادعوا انهم إخوان وأخوال الفتى ابن السادة الأنجاب الذي اخرجته فتاتكم اللعوب عن عرف وعادات عشيرته . كانوا يشكلون حولنا حلقة محكمة .. تشابكت أعناقهم وأيديهم وأرجلهم في عراك طاحن .. أخذ كل منهم يعري خصمه .. سقط عقال من هنا .. تبعته بدلة عمل من هناك .. لحية محمرة نتفت من هنا .. شعر مستعار تهاوى من هناك .. برزت أظافر وحشية من هنا .. كُشف عن ناب مفترس من هناك .. وتدريجياً خلعوا أقنعتهم وملابسهم التنكرية ، وفي استراحة محاربين أخيرة قبل معركتهم الفاصلة وقفوا يلهثون جميعاً .. متحفزين للانقضاض الحاسم علينا .. نظرنا اليهم .. كان لهم نفس وجه السلطان .. وملابسه السلطانية ! عشرات الرجال ، مئات الرجال المتشابهين تماماً .. أردنا ان نصرخ .. نخمش صدورنا .. نلطم على وجناتنا .. نبكي بحرقه من سلب كل شيء .. لكن قلوبنا تجلدت بعدوانية .. حين التفتنا إلى بعضنا .. كان التسليم للمكتوب مرتسماً في عيوننا التي تبادلت نظرة أخيرة .. لم نبك .. استعدت قلوبنا لدفع ثمن الدخول من باب الهوى فلقد فهمنا في تلك

اللحظة الأخيرة كل أسرار العشاق الذين افُتضحت أسرار حكاياتهم .. صمتنا .. جرفنا الموج العاتي ، طُرحنا أرضاً .. كسحنا موج الأقدام والأيدي التي انغمرت في صراع دموي بين رجل انقسم إلى مئات الرجال ...

التجأ الشاعر الأعمى إلى أعلى نقطة في جدار باب الهوى المتهدم وبصوت خنقته أصوات القتال العشائري الدموي ، أنشد مع ربابته المحطمة والمقطوعة الأوتار قائلاً:

يا صوت الجلاد اسمع ،

أقتلنا او اعتقنا او أتركنا نموت بفقر الدم .

لن نبكي ما دمنا أحياء ،

لن نبكي ...

يا قلب الليل الأسمنتي المسود ،

كلماتي البيض عادت تخبرها ،

ما دمت أحبكِ لن ابكي !

* * * * * *

.....

٣١ /تموز /٢٠٠١

غراب ابيض

غرقت سفينة المهربين الفرنسيين والإنكليز ،هنا في (كرمة علي) حيث يلتقي نهرا دجلة والفرات ،تناثرت الآثار الآشورية من الصناديق المحطمة، طمر النهر التماثيل والتحفيات والمجوهرات الأثرية النفيسة وأخفاها عن عيونهم النهمة ، فقط عينا أخيه رأتا واحدة

منها . بحث هو مرارا ..في كل مرة لم يكن يرى في ظلمة الأعماق سوى الخيط الدموي النازف من قدم أخيه... رأى يده الصغيرة المدودة طلبا للمساعدة ..أمسكها بقوة .. أخذ العملة الذهبية منها.. أرخى يده .. انسلت الأصابع العشرة المحتقنة بلون بنفسجي باهت عن بعضها..رويدا.. رويدا ...تفارقت ...صوت واهن ضعيف تبعه من هوة أعماق النهر،صوت آهة مركزها أعماق النهر ..تتنامى ،تكبر على شكل دوائر متلاحقة وهو يصعد إلى السطح حيث الهواء ...الهواء.....أطبق يديه حول عنق أخيه ...خنقه ..تحت الماء...الماء...وصل رأسه إلى السطح...الأعشاب وجزيئات الطين تسد منخريه و عينيه. . بف . . بف . . زفر الماء. . صورة شجرة آدم مبتلة تظهر في عينيه...جسم بيضوي يظهر أسود ، يقترب ..رأس أخيه..يظهر مرة أخرى ..يجر جسمه المتهاوي خلفه .. يصلان الجرف الطيني ..تنبت سيقانهما الأربع الناحلات ، المسودة في وحل جرف النهر..

يد النهر العملاقة الخفية تعتصر قامتيهما القزميتين....تبادلا نظرة طويلة اختصرا فيها تاريخ كامل من المرارة والشعور بالخذلان.. تعانق ظلاهما المتراقصان كهيكلين مقدسين مكسوين بمزيج رمادي من الملح والطمى الأسود،يتراقصان في قرص الشمس البرتقالي المندس رويدا.. رويدا تحت الأفق..تصارع الظلان واشتبكا في صراع مرير حد الموت ...هبت ريح سوداء... انطفأت شعلة الشمس ..مكثا في ظلام دامس لحظات ..صوت آهة غامضة كانت أشد حزناً من سابقاتها ...ثم صمت مطبق... خيط دم مرتسم على طول الشاطئ كان يرتسم خلف خطواته المتسارعة نحو الصحراء ..

* * * * *

أكمل عمله بإتقان ، حفر حفرة عميقة تتسع لجثة أخيه المهشمة الرأس . تلفت يمينا ويسارا: لا أحد! حدثته نفسه أن يدسه في الحفرة ويهيل عليه التراب. لا أحد يرى سوى السماء.. سترشو السماء بالصلوات . لا أحد سوى النمل ، سترشو النمل بقطع السكر. لا أحد سوى الريح .. سترشو الريح بالأغنيات . ستكم أفواه من يحاولون أن يفشوا السر. ستحفر الصحراء حفراً صغيرة . تتسع الصحراء لكتم الأسرار.. تتسع ويجب أن تتسع لذلك ! سيحول تراب قبر أخيك لونك إلى الأبيض . ولن يتذكر أحد بعد ذلك سوادك ...

* * * *

وحيدا عاد إلى الكوخ، رأى أمه المتشحة بالسواد أبدا، كانت واقفة عند التنور تحرك جمرات الحطب المتقدة فيه لعل اللهب يعلو ليلفح الخبز الملتصق بجدران التنور المسودة من اثـــر الرمـــاد... رمقته بنظرة واجمة لكنه لم يهتم لها ..سألته بصوت متحشرج :أين أخوك؟

لم يجب، دخل الكوخ المظلم .. تمنى أن تلمع القطعة الذهبية وتنير الظلمة الحالكة لكنه لم يرَ سوى ظلمة كفيه، انساب خيط من الملح المتجمد على صدغيه إلى أخدود شفتيه، تحسسه بلسانه.. خرج من الجهة الأخرى من الكوخ حيث أكوام القش المتراكمة تبدو في الظلمة كجواميس جاثمة أمام جرف النهر الصغير. استنشق الروائح الأسنة لأقراص الروث المنشورة حول أكوام القش.. قدماه داستا الأرض الرخوة ومشتا على مهل خطوة.. خطوة.. كان يعرف أين سيؤدى به هذا الطريق الضيق المحفوف بأشواك العاقول التي تشق يبوسة السبخ المغطي للتربة .. كانت أكوام السبخ تتشكل على شكل تلال ملحية صغيرة .. وقف على أحدها..لم يكن هو التل الأعلى لكن قدرا مبهما جعلت قدماه تقفان فوقه دون سواه أو ربما ببساطة شديدة أن تعبه الشديد جعله غير قادر أن يمشي خطوة أخرى .. تمنى أن يطير إلى أحلامه التي احتشدت في رأسه الصغير ..أحس أن شيئا خفيا يمسك بقدميه و يقيده حيث تجمد جسده فوق تلة الملح الصغيرة ..هبط برد الليل المتشبع بالرطوبة..اخترق عظامه النحيلة ..وصل إلى قلبه الصغير،لم يجد سوى كبرياء مهشمة ..ارتفع قلبه إلى بلعومه..

أحس باختناق أنفاسه... يد ضخمة تخرج من أعماق ظلمة قاع النهر الكبير.. تلتف الأصابع المدماة حول رقبته النحيلة..تضغط عليها بقوة ..،..... اصطكت غبرة الأفق بصرخة استغاثة مكتومة ....

* * * * *

كان المزارعون و العمال يخرجون إلى أماكن عملهم وقد تلثموا بغترهم المنقطة بالأبيض والأسود ، لا يبدو من وجوهم سوى أعينهم الصغيرة المتعبة التي كانت تشيح وتراوغ دونما تفسير مقنع لضميرهم المثقل بالندم، متجنبةً النظر إلى تلك التلة القصية التي ينتصب عليها هيكل أبيض له منقار مدبب يشير إلى السماء في إشارة غامضة فسرها البعض بأنها تحدٍّ للسماء والآخرون ردوا عليهم أنها طلب يائس للمغفرة ، لكن أحدا لم يختلف على تسمية ذلك الهيكل المتحجر بالغراب الأبيض، الذي كانوا يشاركونه السر، متخلين عن شجاعة النظر في عيون بعضهم البعض خشية أن يروا المنقار الأبيض وقد استعد للبروز !

.....

٢٠٠٦/٢٠٠٠

الرجـل الأخيـر

(١)

واصلت التقدم البطيء .. بوصة واحدة للأمام .. ثم التوقف .. شمس تموز محرقة ترسل شواظ لهبها فوق رؤوس الرجال المصطفين داخل أخدود ضيق يتوسط جدارين عاليين يتمركز فوقهما حراس مزودون باسلحة اوتوماتيكية ... ظهرُ الرجل الذي أمامي ورقبته المحروقة واسمنت الجدارين وأحذية الحراس وبنادقهم كل ما أستطيع مشاهدته منذ الصباح حتى الآن . لم اكن أعرف سبب تأخر الطابور في التقدم إلى أن انعطف الجداران والأخدود الى اليمين فانعطفت .. بوصة .. بوصة .. لتظهر أمامنا منضدة حديدية خلفها رجلان أحدهما يراقب قوائم طويلة تخط على الأرض لا يبدو أنه يريد رفع نظره عنها ، والآخر يستجوب الرجل الذي وصل الى مقدمة الطابور. ثمة رجلان آخران لا يزالان أمامي في الطابور ...

ما اسمك ؟

ابن غريب .

كم عمرك ؟

عمري ستة الآف سنة من الضياع في التاريخ القابيلي بسلالات سلاطينه وأبواق انتصاراتهم المرتفعة ابداً!

اكتبْ .. فاقد الذاكرة ، لم يبلغ سن الرشد بعد !... حالتك الاجتماعية ؟

متزوج من تسعة وتسعين جارية حبشية عذراء وامراة عجوز قتلت كل عشاقها في ليالي زواجهم بها ، ولكني كنت الناجي الوحيد من مذبحتها حيث اعتبرتني مجنونا حين رأتني اكتب قصيدة في وصف جمال عفونة عذرية بكارتها .

اكتب .. اعزب لم يتماس يوما مع انس او جان ولم يكن ...

انتبهت من كوابيس يقظتي، حيث لكزتني فوهة رشاشة أحد الحراس بظهري، فتقدمت أمام المنضدة الحديدية . حدق بي المحقق ذو النظارتين السوداوين السميكتين . .لم اكن استطيع تخمين ما تضمر عيناه .

ما هي مهنتك ؟

مؤرخ .

ماذا ؟

اقصد جامع حكايات .

اتوجد لدينا مهنة بهذا الاسم ؟!

حدق الرجل الجالس بقرب المحقق في قوائمه طويلاً .. وأجاب

لا يا سيدي ...

-اذن اكتبْ: نحن رئيس واعضاء اللجنة الخاصة بإسكان وتوظيف مواطني الدرجة الثالثة، الدفعة الرابعة من اللاجئين ، قررنا اعطاءه الرقم (١٣٤٠٠) واسكانه في البناية رقم ٣١ ، الطابق الثالث تحت الارض ، الغرفة رقم (٦٠) السرير رقم (٧) على ان يتقاضى راتبه اليومي المكون من ثلاث وجبات من حساء الغبار ورماد الخبز بمقابل نومه ست عشرة ساعة تحت الاضواء الكاشفة لواجهة محلات الاعلان عن أسّرة النوم السفرية الحديثة ماركة (رفاهية الشعب) .. اكتب في نهاية الصفحة .. يرجى التأكد من عدمٍ إصابة المواطن الموما اليه بإحدى النوبات الحادة الناتجة من عمله السابق بإحدى المهن الغامضة ... ليتقدم الذي يليه ..

فوهة الرشاشة استمرت بوكز ظهري حتى ادخلتي إحدى البنايات الكبيرة الموحشة ..

(٢)

التناوم الممل لست عشرة ساعة اصاب جسدي بالخدر رغم تغييري لوضعي كل اربع ساعات من اليسار الى اليمين ومن الوجه الى القفا بالتناوب ، كان كل شئ يجسد السأم حتى المتفرجون الذين كانوا يحدقون بي اكثر مما يحدقون بالسرير المُعلن عنه ، لم يعودوا يثيرونني كما في الأيام الاولى ، كنت أكره الجميع باستثناء الاطفال الصغار الذين كانوا يلصقون أنوفهم الفطس بزجاج المعرض مخرجين ألسنتهم الصغيرة . كنت مسروراً لأنَّ الكرة الارضية لايزال يمشي عليها طفل بعد الكارثة الكونية الثالثة التي قُسم البشر بعدها الى طبقات اجتماعية يُخضِع بعضها بعضاً وتُخضِعها جميعاً الطبقة الاولى التي تتمثل بحاشية

السفياني السفاح الذي يقال همساً أنه الخادم المباشر للشيطان ! إنني أعرف أن عقلي ملئ بالخرافات و أني لا أستطيع فهم الامور كما يجب . فمثلا لم أستطع يوماً أن أفسر لنفسي سبب المناداة المستمرة على العاملين لغرض التأكد من وجودهم بالرغم من وجود كاميرات المراقبة[١]. كما لم أعرف قط في أي عصر نحن نعيش !؟ أفي عصر السلاطين المزركشي الثياب الذين يظهرون في الشاشات الالكترونية العامة وهم يرقصون الفالس والتانغو ورقصة غريبة أخرى يدّعون أنها تجلب المطر ، أم نحن نعيش في عصر الكومبيوترات الشخصية المبرمجة لأبطال الأعمال السحرية الشريرة ؟ وبالإضافة الى كل ذلك فإن قدرتي على التوضيح عبر الكلمات مضحكة اذ لم يتوفر لي وقت كافٍ للكلام او سماع الكلام، فبحكم الأعراف القائمة فإن طبقتي الاجتماعية لا تصلح للكلام وهي لاتمتلك سوى لغة هجينة خاصة لايكاد مستعملوها أنفسهم أن يعرفوا مفرداتها بالكامل . إن تاريخ هذه اللغة لايتجاوز سنين قليلة سبقت الكارثة الكونية وهي لاتفصح عن حالة الناس وأفكارهم قبلها ، فهنالك هوة عميقة تتجاوز الستين قرناً تفصل ما بين الحضارة الأولى التي ظهرت على سطح الأرض وهذه الحضارة التي تليها مباشرة ..هذا ما كانت تؤكده دائما كل الجهات المختصة

(بثقافة الشعب) مضيفة أن حضارتنا هذه التي طورت اكتشاف النار والحديد في الحضارة الأولى هي امتداد وتطور طبيعي ومنطقي لتاريخ البشرية ، ففي الفترة الفاصلة بين الحضارتين لم يسكن في هذه الأرض سوى شعوب وقبائل بربرية لم يكن لها تاريخ يذكر، وان هذه المدينة التي تحمل الرقم (٦٥٦) في المقاطعة (١٧) في الإقليم الثالث هي مدينة حديثة يرجع تاريخ بنائها الى نهاية الحرب الكونية . فالمدينة التي سبقتها قد اكتسحها طوفان هائل جرف إلى البحر كل الأقوام البربرية التي سكنت الأراضي المنخفضة حول الأنهر الغرينية ،فعادت تلك الشعوب إلى أصلها كبرمائيات نتنة نسيت بمرور الزمن أن تتنفس الهواء وغابت في الأعماق الغامضة . كنت أتحدث إلى الرجل الفتي الذي كان يبدو في بداية الثلاثين من عمره برغم التجاعيد والأخاديد التي في وجهه .كان واقفا تحت المطر منذ الصباح متلفعاً برداء صوفي لا يُصنع مثله مصنع (اردية الشعب) و إذا ما كان تخميني صحيحا فأنها

فروة مكتملة لخروف حقيقي .كان يحمل معه كتاب أوحت لي أوراقه القديمة التي ربما كانت من جلود الغزلان أو النياق بأنه من الكتب التي تم تحريم قراءتها وتداولها لأنها تشيع الخرافات والأكاذيب في أذهان الشعب ، كتب ..ككتب الشعر والسحر والتداوي بالأعشاب، وبالتأكيد كتب الرحالة الباحثين عن الحكايات واللغات واللهجات المنقرضة للشعوب المهزومة . كنت منتشيا بإيجاد شخص ما يهمه سماع ثرثرتي في يوم ممطر لا يجرؤ أن يخرج فيه أبناء الطبقة الأولى الذين لا يسمح لغيرهم بالتجوال طوال فترة النهار، فكان الشيخ الصغير مشاهدي ومستمعي الوحيد في هذا اليوم .اردت إخباره بأشياء سرية لا يجرؤ المرء أن يقولها لنفسه فى هذا الزمن الأسود ..عن غرفة التعذيب التي اقتادوني إليها بعد نهار كامل من الاصطفاف في طابور طويل أمام اللجنة المختصة بالسكن والتوظيف، قالوا يجب أن أعد بصورة جدية لحياتي الجديدة ، و عليّ امتلاك روحية جديدة، ولذلك كان عليّ امتلاك اسما جديدا هو ١٣٤٠٠ بدلا من اسمي القديم الذي لم اعد اتذكره الآن بفضل تعذيب الذاكرة الذي جعلني أتقيأ تاريخي معتبرا إياه جزءاً من الأضاليل التي على الانسان الجديد أن يتخلص منها، كما يتخلص من الكلمات غير المفهومة التي ليس لهـــا معان واقعية يمكن لمسها باليد المجردة . ولم يكن ذلك بالامر الصعب الثقيل على إنسان بقي في زنزانة مظلمة عدة سنوات تصرخ في مسامعة أصوات مسوخ تروي له فصول تاريخ حياته منذ أن ولد حتى لحظة دخوله هذا التابوت الجهنمي ، تقطع مآسي حياته الساخرة صرخات ونوبات تقيؤ وتشنجات وبصاق . لم أكن أعلمهم بكل ذلك ، لكني كنت أفكر في سري بكل ذلك وأكثر .. بكل الجرائم اللامنفذة وكل الأمنيات الخائبة التي في داخل إنسان عاش محروما من الجميع ، حاقدا على الجميع .. راغبا في الجميع . لكني نجحت أخيرا في الامتحان الرهيب وخرجت إلى النور إنساناً جديداً ، ومثلما ارادوا طفلاً خشبياً بلا ذاكرة بلا تاريخ[٢] ، لكنـــي لم أخبره لأن الحقيقة رهيبة ، برغم إننا نعلم أن الجميع يعرفونها ، لكننا نؤثر ألا نتكلم عنها ابداً لكي نستطيع أن نستمر بالتحديق ببعضنا ببلاهة . لم أخبره بالرغم من علمي أن مستمعي الصامت لم يسمع أي حرف مما قلت منذ الصبح وحتى الآن، لأن زجاج واجهة المعرض كان مانعاً

للصوت حماية لي من أي اشارة قد تهيج شخصاً غير مثقف من الطبقات الواطئة ، مثل الشخص الذي لايعرف من أين ورث كل هذه القدرة على الثرثرة غير المفيدة والاسترسال في خيالات محزنة، تقطعها المناداة الدورية على العاملين في أجنحة المعارض المختلفة للتأكد من وجودهم في أماكن عملهم ، وقبل أن يصل الدور إلى مناداة المكبر عليّ ، قام الرجل الثابت تحت المطر كشجرة كالبتوس معمرة برفع ردائه الصوفي، فلمع شئ متدلٍ من عنقه الذي يظهر فيه حز عميق يوشك على الاندمال تؤطره بقعة كبيرة لدماء متخثرة تحيط بفتحة قرب القلب ، نظرت دهشاً اليها، كان البحر فيها يتدفق خلال غابات النخيل .. كانت الشمس مضيئة برغم المطر الصاخب .. أمسك الخرزة المتدلية بيده وابتسم بحنان ، شدني إليها إحساس نبؤي غامض واعتصر قلبي بحزن ورغبة مدمرتين لكن المكبر صرخ : ((١٣٤٠٠)). لم أجب ، اختنق صوتي .. . ، فهمت إشارته ببديهة فائقة ووددت لو اندفع نحو الواجهة الزجاجية واحطمها ماضياً معه الى الصحراء حيث جذورنا الاولى.

لقد أيقنت طوال الوقت ودون مبرر أن الاجداد لن يدعوني وحيدا ، وأن الاشارة لا بد أن تاتي يوماً ، لكن المكبر ازداد خشونة وتهديداً : ((١٣٤٠٠ أجب)) يا إلهي ، أيتها السماء.. لماذا لاتدعيني انام في سرير (رفاهية الشعب) دون اهتمام؟ لماذا عليّ أن أعيد تواريخ المعاناة ؟ أيتها السماء : دعيني ، كنت أقولها متراجعا عن واجهة الزجاج التي كان خلفها الرجل الشيخ يحدق بي بعينين ثابتتين ، دوى المكبر مسعوراً : ((١٣٤٠٠ اجب ، الامر الاخير قبل اطلاق النار ... أجب)) ودون أن أعي صرخت نفسي بصوت جاف مرتعش:

– ١٣٤٠٠ ... ن ... عم حاضر !

انسابت لاول مرة في حباتي دمعة ساخنة وأنا أراه يقف قريبا مني خلف الجدار الزجاجي متأرجحا بين الحلم والذاكرة يبتعد رويدا .. رويدا، مختفيا بين ستائر المطر وحجبه الداكنة ، محدقا بي ، بصمت، بدموع متحجرة ، ونحيب خافت لتاريخ مكتمل الاسى وحزن عميق !

(٣)

لا يُسمح لنا بإضاءة مصابيح الغرف بعد الثانية عشر ليلاً ، وخوفا من افتضاح امري اشعلت شمعة على شكل بقايا جذع نخلة استهلكتها الليالي السابقة .. بدأت بتصفح الكتاب الجلدي المتاكل والمحروق الحواشي .. لم تؤثر قطرات المطر في الخطوط القديمة المرسومة بحبر مصنوع من الصمغ المخلوط مع ذرات تربة سوداء زكية الرائحة .. كنت أحاول فك رموز الخط الذي لم تنقط حروفه ، مخمناً كل الاحتمالات الممكنة للكلمات .. كان مؤلف الكتاب يطلب من قارئه أن يدون حكايته في نهاية الكتاب ، مدعياً ان كل حكاياته هي حكايات حقيقية لرجال سجلوها في لحظة مواجهتهم لمصيرهم ، وانها الوثيقة الوحيدة المتبقية من تاريخ هذه المدينة الذي تم تزويره.كان يسجل كطلب أخير رجاءه لحامل هذا الكتاب أن يضحي بنفسه إذا اقتضى الأمر من أجل تسليمه لأيد أمينة قبل أن ....،... صوت قرع شديد على الباب .. أصوات شرسة تطلب فتح الباب قبل كسره .. كيف عرفوا بالامر ؟ آه .. أين أخفي الكتاب؟ نهضت مرعوباً ، محاولاً الهرب .. صداع شديد في رأسي .. أمسك .. رأسي .. سقط الكتاب من يـــدي .. سقطت على الارض .. مددت يدي جاهداً أن أجعلها تصل الى الكتاب .. تهجيت الحروف الذهبية المطبوعة على غلافه الأسود : ".. الأ ..بُلَّة .. و .. أزمنة..الصمت "! كسروا الباب .. هبت ريح سوداء باردة .. انطفأت الشمعة ، فاختفت كل الكلمات !

---

* *

١.صور افكاره تظهر على الشاشة ..يراقبونها .. كل كلمة تبدأ بلم اعضائها حرفا ..حرفا، الكلمات المجردة تتحول الى صور عند وصولها الى مخيلتي .. الجهاز المتحسس الصغير الذي زرعوه في الجزء الامامي من مخه يقوم بتحويل الاشارات البايلوجية الى اشارات رقمية ؛ صوتية وصورية ؛ يقومون باستلامها وتحليلها باستخدام الحاسوب الألكتروني لتحويلها الى صور ملونة تظهر على الشاشة كل ما يفكر فيه .لقد نجحوا في مسخ كل

ذكريات رجال هذه المدينة القديمة وتحويلهم الى أطفال أو شيوخ بلا ذاكرة . فكلما أراد واحد منهم أن يستعيد في ذهنه إحدى صوره الشخصية القديمة بثوا له موجات مغناطيسية يرسلها متحسس الكتروني؛ بحجم حبة الحمص؛ مزروع داخل التجويف الخلفي للدماغ يحول الاشارة المغناطيسية الى اشارة بايلوجية تشوش ايعازات الاعصاب ، فتحطم الصور الشخصية لمخيلته وتفرغ عناصرها المعنوية والشكلية، ثم تقوم بالتعايش والتغذي على موادها الحية وبناء صور مصنوعة تقوم باستنساخ نفسها بسرعة مذهلة ، والسيطرة على كل فعاليات التفكير الحر واستعبادها، حيث يستلم المتحسسان (المستلم والباعث) طاقتهما من الخلايا العصبية التي تبلغ ذروة تهيجها عند استفزاز الرجل الذي يحملهما وذلك بالمناداة الدورية باسمه الرقمي.

٢. ظهرت على الشاشة صورة رجل معلق من قدميه.. رجل ذو لحية شعثاء ونظارتين مكسورتي العدستين ..ثم ظهرت صورة محاربين آشوريين وكهنة ونار متقدة .. كانت صور الحكاية تتشكل تباعا لكن ألوانها تداخلت ، تفجرت عيون نارية في وسط صورها واحترقت مخيلته قبل ان تكتمل الحكاية .. حاول ان يخادعهم .. سلك طريقا خفيا .. جلس عند سور قديم مع امرأة غجرية العينين .. من نارهم ابتدأ حكاية جديدة فولّدت النار أربع أكفّ صغيرة تتدفأ .. الشاشة يكتنف حوافها ازرقاق غامق ، ضباب متصاعد ، يظهر من خلف الضباب مهرج يتدلى من أعلى السور، يفتح فمه فيدخل فيه رجال ونساء كثيرون يهربون من فرسان ملثمين ، شلال ماء يخرج من فم المهرج يجرف الخيول والرجال والنساء والفرسان ويتدحرجون جميعا .. يتدحرج المهرج فوق بساط السلطان .. ينكس رأسه ، ينظر بين ساقيه المنفرجتين فيرى السلطان جالسا وسط جواريه .. يريد المهرج ان يبدأ برواية الحكايات لكن السلطان يقطع لسانه قبل ان يبدأ ويعلقه فوق باب الهوى .. هواء الصور المذاب في أعماق النهرلا يُظهر سوى رأس غراب أبيض .. يغطس .. يظهر .. غراب برأس أسود .. النهر يندفع في جريانه السريع حتى يصل الى شجرة ينام تحتها رجل عارٍ إلاّ من خرقةٍ يلفها حول وسطه .. تجلس بجانبه امرأة يغطي شعر رأسها

جسدها النحيل .. تسقط من الشجرة تفاحة .. تفاحة آدم .. المرأة تضم التفاحة .. يخرج من التفاحة غرابان يلتهمان التفاحة ويلتهمان أباهما وامهما .. يلتهمان صور الشاشة .. وهكذا لم يستطع ان ينهي أية حكاية .. كان يفكر كل صباح أن يبتدئ العمل المؤجل أبداً منذ ايام دراسته الجامعية حين كان يفكر بخلق شخصية كاتب يقوم برواية تاريخ مدينة ال....لكنه لم يستطع تذكر اسم المدينة قط ، فلقد اغتالوا اسمها من ذاكرته حين استطاعوا اقناعه باغتيال الراغب بن..ابن تلك الضحكة العالية التي اقشعر لها بدنه حين سربتها الى دمه المجسات الصوتية .. المغروسة في مخه .. استمر بالارتجاف من البرد والحمى .. ارتسمت على الشاشة صور مسوخ لهم وجوه اسماك محرشفة ، يزحفون نحو أحد الابواب المغلقة .. يطرقون الباب .. صورة وجهه .. ترتسم على الشاشة .. صوت الطرق يصك أذنيه .. يبدأ بالأنين ،، أنين يجعل الصورة في الشاشة تهتز .. فتاة شقراء ترتدي تنورة حمراء قصيرة تفتح لهم الباب .. يقبلون أقدامها .. يلحسون ساقيها .. يمتصون دمائها .. الفتاة تقف دون أن تصرخ أو تهرب .. وجهها يبدأ بالاستطالة ... يخضر .. يتحول الى وجه جرادة .. يبدأ هو بالتقيؤ.. الصورة تختفي .. لم يدعوه يكمل أي قصة، فقد قدرته كلياً على التركيز .. حين تُطفأ أضواء الأبراج الضخمة كان يحاول أن يترك الحلم يمر خلال مخيلته دون أن يُلفت انتباه المتحسس الالكتروني .. يحلم بوالده ملقى فوق دكة مغسل الموتى .. اقترب منه محاولاً تقبيله .. لكن أيدي خفية ترفع جسد والده بعيداً ، ولم تلقِ بالاً لتوسلات الابن، كان يبكي وحيداً في غرفته المنعزلة محاولاً تغيير مسار الحكاية ، لكنه كان ينخرط في البكاء كنصف قمر ميت .. فشلت كل مناورات احلامه . كانت المجسات الالكترونية تعيدها الى سايتوبلازمها الهش أو تعيدها لتتيه في صحراء اللمف الأبيض المتخثر في جسمه .. تاهوا في صحرائها .. جروا نياقهم المتعبة .. أدخلوا الدجاج والبط الى حظيرة غربتهم .. عشيرتهم، شاعرها وشيخها وحسنائها، يبحثون عن الكلمة التي أمست مصيرهم وزاد رحلتهم.. لكن الكلمة لم تظهر على الشاشة قط، فقد استبعدها قلبه المتعب من الأحلام الخائبة.. تركهم يهيمون في التيه تُسفك دماؤهم الخضر.. يفترسهم الأعـــداء البربريون ،

لم يمدهم قلبه بأي امل .. غسلت حسناء العشيرة حناء يديها بدمه، فأصيب بداء الخرس إلى الابد !

.....

(٢٠٠١/١٩٩٦)